أنثى الوَعْل

رواية

للكاتب/ فيصل طالع عسيري

المملكة العربية السعودية

القسم الأول

- سيد حامد! .. سيد حامد!

من موقعي تحت الطرف الأيمن للحافلة الزرقاء الكبيرة كنت أتابع بعيني السيدة روبنسون وهي تسير نحوي مسرعة مثل إوزَّة حمراء ألقى بها الغيب تحت شمس الصحراء الدافئة،حاملة في يدها جزءا من غصن شجرة أثل مدته لي وهي جاثية على ركبتيها، وقالت بخشوع لم أشك في أنه من القلب:

- أرجوك.. خذ شجرة "راضية"!.

تناولت الغصن الطريّ بفعل أمطار الأسبوع الفائت وقلت:

- حسناً.. أعتقد أنها تشبهها تماماً، كيف وجدتها؟!

كنت لا أزال ممدّداً أسفل العربة فجلَست في مقابلي وقد بدت عليها آثار الإرهاق. بقيت عيناها تتنقل بيني وبين الغصن القصير متابعة تعليقاتي عليه. تماما كمن عثر على قطعة أثرية نادرة وبانتظار منحها قيمة..

حين كانت تعدو باتجاهي لم أستطع منع نفسي من ملاحظة الساقين الممتلئتين من الأسفل للأعلى لسيدة أوروبية في خريف العمر .. ساقان بيضاوان كانتا ولاشك هدفاً سهلاً لغزليات عابرة في زمن آخر وهما يقطعان شوارع المدن الإيرلندية العتيقة، المرصوفة بقطع الحجارة الحمراء. ومنطلقين فوق جسور نهر "ليفي" كأطراف مهر انجليزي هارب ..

قبل أن أعمل في وظيفتي هذه كسائق ومرشد لدى مصلحة السياحة والآثار، عملت في وظائف شتى ..

خذ عندك مثلاً!: مأمور في وكالة البريد. حارس في أحد الأسواق بالمدينة. سائق سيارة أجرة. سائق حافلة توصيل فتيات للجامعة. متعهد توصيل للمعلمات -

وقد يصادف أن أكون جليس أطفال في أثناء وجود المعلمة في أحد الأسواق أو في مراجعة للبنك تستغرق وقتا. فني إصلاح لأجهزة الجوال واسترجاع الأرقام المفقودة بسبب إغراق الأطفال لها في الماء أو إسقاطها من أعلى الدرج. كاتب خطابات أمام فرع البنك الزراعي بوسط المدينة، مما يجعلني أشعر بالفخر كوني ساهمت في زيادة المساحات الخضراء في البلد، إضافة إلى المساعدة في إسقاط عشرات القروض المستحقة عن قليل من الفقراء وكثير من الأغنياء!.

عملت منسقاً للحفلات ووسيطاً بين الشعراء وصاحب الحفل. جميع الحفلات طبعا باستثناء مناسبات الختان التي لم أكن أقبلها بدافع إنساني بحت لا علاقة له بالمال. إذ عادة ما يقدم لي أصحاب الحفل قائمة بأسماء الأشخاص المطلوب ذكرهم بالمديح في قصائد الترحيب، آباء وأعمام وأخوال وأجداد شبعوا موتاً، بينما لا أجد في القائمة أي إشارة أو التفاتة لاسم الطفل "المختون"، الذي قاسى العذاب وحده!. كان هذا كافياً لجعلي أتنحى عن قبول تلك الطلبات .. والأرزاق على الله!.

الأهم من ذلك كله أني تشرفت بالعمل في وظيفة مساعد لمأذون أنكحة، لم استمر فيها كثيرا بسبب خطأ مزدوج في كتابة اسم والد الزوج، مع خطأ في تسجيل أرقام السجل المدني للزوجة، حيث حلت الستة في مكان السبعة، وأتت التسعة في المكان المخصص للثمانية.. وحين تقدم الزوج لتسجيل الزواج في الأحوال المدنية تم اكتشاف الخطأ ونودي على المتسببين وكنت في مقدمتهم ..

تم إرسال صك الزواج للجهة المختصة لإعادة الزواج مرة أخرى لأن قاضي الشؤون الأسرية قال لهما: "زواجكما باطل"! ، وأفهم الزوجة أنها كانت تعاشر رجلا غير الذي تم عقد قرانها عليه. كذلك تم إخبار الزوج انه كان يرقد على مدى سنتين كاملتين في حضن امرأة أخرى غير التي تم تزويجه بها.

كانت المشكلة الكبرى ماذا لو كان هناك حمل؟!،لأنه و-بحسب فهم القاضي- سيكون حملا غير شرعي، ولا ينسب للأب لأن الأب الذي ضاجع الأم ليس هو الأب المسجل في عقد الزواج.

نجا الاثنان بأعجوبة من تهمة ممارسة علاقة غير شرعية، لكن المعضلة الخاصة بالطفل المرتقب ما زالت قائمة .. واتجه الأبوان منفصلين، كل واحد لوحده إلى مكة المكرمة ليدعوان هناك بألا يكون ثمة جنين في أحشاء الزوجة . لكن الطفل سرعان ما أعلن عن وجوده حين سقطت أمه في السعي بين الصفا والمروة مغشيا عليها، وتبين في مستوصف قريب أنها حامل في الشهر الثالث. كاد أحد الآراء التي تم تداولها أن يلقي بالطفل في دار الأيتام لولا أن رأيا آخر أكثر حكمة رأى بأن في الموضوع خطأ وأن إصلاحه يتم أولا بمعاقبتي أنا والمأذون،

هو بسحب رخصته وأنا بسجن وجلد لم يتما بسبب توسط أهل الخير متذرعين بيتمي وجهلي -ولو أنهم أضافوا وقتها فقداني للبصر لكنت وافقت!-، فالمهم أن أتجاوز هذه الورطة.. لكنني في الجانب الأخر كنت راضيا أن أصبح كبش فداء لطفل كان على وشك أن ينشأ بعيدا عن والديه ..

ولم أتصالح مع ضميري بشكل تام إلا حين سمعت لاحقاً أن الزواج تم مرة أخرى بشكل صحيح وأن الطفل تم قبوله داخل الأسرة..

قبل أن يصدر حكمه المخفف أمرني القاضي -على سبيل الإثبات لعدم معرفتي بالكتابة كي أنجو-أن أكتب اسمي. حين طلب مني ذلك علمت أن بابا للسعادة فتح لي من السماء، فقمت من على المقعد وأمسكت القلم كما يفعل الأطفال. وضعته بين الإبهام والوسطى بدلا من السبابة وكتبت بخط متعرج منحدر نحو الجنوب: حمد، بدون ألف، وشرعت مباشرة في كتابة اسم أبي بلا نقاط فإذا بعطية خاليا من أي نقطة، ثم ختمتها بكتابة الصاد في اسم عائلتي سين. استفهم القاضي وهو ينظر لكتابتي المفتعلة عن اسمي كاملاً فأخبرته، فسألني عن النقاط في اسم الوالد -رحمه الله-فقلت إن الأستاذ في مدرستنا كان يعلمنا الحروف بشكلها الحالي لأنه لا يريد أن يصعب علينا المناهج الدراسية. سألني عن شهادتي فقلت بافتخار بأني في الصف الخامس في المدرسة الليلية واني أكافح حاليا للوصول للصف السادس لكي أجني لقمة عيش شريفة أولاً، ولأشق طريقي في طلب العلم ثانياً. فقال متباهيا وهو يمسك بالقلم بأطراف أصابعه: إن حامد تكتب هكذا.. وعطية تكتب بهذا الشكل.. فافتعلت ابتسامة حزن لما فاتني من علم -اختصه الله به-، ونظرت بإعجاب ماكر إلى خطه الذي قام بزخرفته بوضع أجنحة عند بداية الألف وفوق الدال،بالإضافة إلى الشدة على ياء عطية ،ثم أشار لنا أن نذهب،وانتهى الحكم.

ابتعدت منذ تلك الفترة عن كل ماله علاقة بكتابة أشياء تخص الناس ووجدت وظائف أفضل منها،ولكن بعد أن تعلمت أن الحياة تدور بشكل مختلف عما أفهمه ويفهمه الكثيرون ..

تمت مؤخراً ترقيتي لأكون مرشدا سياحيا بأجر زائد، إضافة لعملي الأساسي كسائق، وذلك بسبب لغتي الانجليزية التي حسدني عليها مدير التوظيف حين أجري معي حوارا لمعرفة مستواي في اللغة وسألني سؤالاً فانطلقت أتحدث وكأني متكئ على كرسي في أحد مقاهي حي سوهو بلندن، أو في مطعم شعبي يقدم الفطائر في مانشستر.. فقال:

- حسنا.. أنت منذ اليوم تحت التجربة!.

ومازلت كذلك منذ مدة طويلة وحتى الآن ..

كان من شروط عملي في توصيل طالبات الجامعة أن يرافقني محرم، وهي إحدى النساء من أقاربي، ولم يكن هناك مشكلة قبل أن تتزوج أختي إذ كنت اصطحبها صباحاً لجمع الفتيات ثم أعيدها للمنزل وأرجع لاصطحابها ظهرا لنعيد البنات للبيوت ..

كان الأمر سلساً على مدى طويل إلى أن تزوجت أختي وانتقلت لبيت زوجها الذي رفض عودتها للعمل معي، مع أن الراتب كان مناسباً: ربع الدخل بالتمام والكمال. كانت تأخذ الربع مقابل نزهة صباحيه وأخرى بعد الظهر في سيارة مكيفة، فيما تقضي اغلب وقتها نائمة.

برزت مشكلة المحرم حين صحبت الفتيات لوحدي ثلاث مرات متتالية، معتقداً أن زواج أختي يعدّ سبباً كافيا للسماح لي أن أبقى وحيداً، لكن الاتصالات الغاضبة بدأت تنهال من أسر البنات طالبين إحضار امرأة ترافقني في المشوارين ذهابا وإيابا، وحاولت عبثا الشرح لهم بأن الأخت تزوجت وهي في بيت زوجها الآن ولا ترغب في العمل.. حين جادلت أحد الآباء بأن ابنته كانت تذهب مع سائق باكستاني بلا محرم، قال وكأنه يخترع معلومة جديدة أن السائق الذي أتكلم عنه في بلد غريب، وليس لديه امرأة!، أما أنا فابن الوطن وبإمكاني توفير امرأة"من أي مكان":

- "أليس لديك أقارب؟": أخوات؟ خالات، عمات؟ .. هكذا قال لي وكأنه يلومني على عدم وجود عدد من الإناث في حياتي يمكن استخدامهن لمثل هذه الحالات.. وفهمت ضمناً، بأنه يثق في الآخرين ولا يثق في أبناء وطنه. هذا كل ما في الأمر.

لم أعترض كثيراً فقد كنت محتاجاً للعمل لأعول نفسي، واهتديت أخيرا-مادام أن الوضع شكلي لا أكثر- إلى ابن عمي "طاهر" ..

- "يا حبيبي طاهر" أريد أن تعمل معي في الحافلة كمحرم.!.

هكذا حدثته بدور مقدمات. الغريب في الموضوع انه بدلاً من أن يبدي اعتراضاً سألني مباشره عن المقابل المادي، وبعد شد وجذب وحساب للمصروفات لم يرض بأقل من النصف فوافقت، على أمل أن هذا العمل سينتهي قريبا حين أجد عملا أفضل ..

ذهبنا سوياً لسوق قريب يبيع الألبسة بأسعار متهاودة، فاشترينا عباءة تناسبه،وبمناسبة التخفيضات القائمة في ذلك الوقت فقد حصلنا على برقع كهدية مع العباءة. استعرنا غطاء وجه وشيلة للرأس من أختي،بالإضافة لقفازين اشتريناهما من محل عطارة قريب يبيع القهوة والمكسرات وأعشاب التنحيف والعسل.

طلبت من طاهر أن يخفي يديه بالقفازات وقدميه بالجوارب. وعرض علي في غمرة حماسه للعمل أن يستعمل الكحل في الأيام الأولى كاحتياط لأي طارئ فلم أجد في الموضوع ما يمنع .. حتى إنني أعجبت به في اليومين الأولين حين كنت أنظر في عينيه،متمنياً لو أن أمه أنجبته بنتاً، لكنني تراجعت عن خيالاتي فيما بعد حين عادت عيناه لطبيعتهما بلا كحل،عينا قط متوثب ليس فيهما ما يغري بأي عاطفة..

قدرت له تلك "الفزعة" التي جاءت على شكل عمل،لأني اعرف انه يفعل ذلك في الحقيقة من أجلي وليس من اجل المال. فبرغم كونه عاطلاً إلا أن أمه ترسل له من قريتنا كل شهر ما يكفيه وزيادة. لكنني اكتشفت السبب الحقيقي لحماسه فيما بعد اذ انه كان يطمع في إنشاء علاقات عاطفيه من خلال حافلتي،وانتبهت في الوقت المناسب فلم اسمح بذلك..

استمر العمل عدة أشهر دون كوارث، جمعنا خلالها بعض المال إلى أن حانت لحظة الحقيقة والتي بدأت بسؤال من إحدى الطالبات اللعوبات:

- أخ حامد!، هل الذي معك بنت أم ولد ؟!

وافتعلت الاندهاش من السؤال:

- من تقصدين أختي الثانية"طاهرة"؟!..

ومبالغا في تطويق ثورة الشك،قلت:

- لماذا تسألين ؟ هل لديك عريس؟!

ثم أضفت بشعور قائد يحاول سدّ ثغرة في قلعته أحدثتها قذيفة طائشة خارج الهدنة:

- عموماً نحن لا نهتم بالماديات، يهمنا الأخلاق والدين، وقبل كل شيء سمعة العائلة!.

قلت ذلك لها مستغلا كون صاحب الشأن يغط على يميني في نوم عميق، مسندا رأسه إلى الجزء الأعلى من باب الحافلة.

كانت الأسئلة المريبة قد بدأت بعد أن مدت إحدى الفتيات في طريق عودتنا ذات مرة بكأسي شاي قدمته لنا بمناسبة حصولها على درجة ممتاز في اختبار علم النفس. تناولت واحدا وانشغلت بالقيادة فيما تناول ابن العم كأسه ثملا بما يظنها إشارة لبداية وصل كان ينتظرها منذ زمن. ناسيا انه يمثل دورا خطيرا. وصادف انه نسي أن يلبس قفازات اليدين في ذاك اليوم بسبب تأخره في الاستيقاظ، فبدا السواد تحت أظافر يده الطويلة بعروقها البارزة، ثم حدثت النكبة الكبرى، حين مدّ يده كاملة فظهر الشعر الملتوي والمنتشر من بداية اليد إلى نهايتها وكأنها ظهر قرد. حينها سمعت صرخة مكتومة الخلف وساد لغط نسائي تخلله وشوشات مرتابة .. وحين انتهى ذاك اليوم على خير طلبت منه في اليوم التالي أن يبقى،وأخذت السيارة لوحدي مدعيا أن الأخت مريضه ، متجنبا بذلك فصلا داميا من فصول حياتنا..

وبعد أن توالت الأسئلة من الفتيات وآباءهن بشأن المحرم التي كانت معي، قمت باستغلال فرصة إجازة نهاية الأسبوع وأخبرت الجميع بأني وجدت عملاً في الحكومة وبأني أتوقف عن توصيل بناتهم، ومتنازلا عن المبالغ المتبقية، قائلاً لهم:

- اعتبروها هدية من أختي طاهرة. أدعو لها بالعافية!.

وكما توقعت، فعندما أخبرت ابن العم ألا ينتظر أي مبالغ مني بسبب فعلته، قال إنه لم يكن يريد حقيقة أي مال مقابل جهوده، وانه اكتفى بالروائح العطرية في حافلتي.

- "رائحة الفتيات تكفيني"!.

هكذا تعبيراته، تدل على اندفاع لا مبرر له بنظري. ونصحني بالبحث عن عمل حقيقي أكثر احتراما كما يقول.. واخبرني في مناسبة ثانية بعد وقت طويل انه كان يبكي على المخدة قبل النوم بسبب رائحة العطر و الأصوات الناعمة وأمنيات الوصل،مقترنة بالحرمان الذي كان ينتابه على شكل شعور بالوحدة.. (مثل الغريق العطشان)!..هكذا وصف نفسه.

تركت العمل هناك وسمحت للحياة أن تأخذني كيفما شاءت، فقد كنت اترك المقادير تجري بينما انتظر كأني شخص أخر يتفرج على مصير ذاته .. كان مبدأي الأساسي: "إذا لم تؤذ الآخرين فلن يؤذوك!" .. لا مغامرات عاطفية تذكر .. لا سرقات أو عمليات نصب .. لا أصحاب سوء .. فقط قليل من الكتب وكثير من الحركة، وبعدها تفكير واسترخاء وشيء من التأمل .. على عكس ابن العم الذي حين قدم من قريتنا الى المدينة أصابه الذهول من هذا الكائن المدهش:" النساء"!. كان يرى في (النسوان) خلاصاً من الحزن والظلم والألم وكل ما ينغص الحياة، وكنت أضحك من أفكاره ليس لأنها غريبة فقط لكنها أيضا كانت مسلية..

- " يا أخي في مدينتكم ملكات نساء الأرض"!.

ولم يكن ملكات ولا أي شيء.. بل كن نساء مثل كل النساء، اقرب إلى القبح منهن للجمال، لكنه قدم من مكان لم يكن يرى فيه سوى الذكور او قريبات يشبهنه أو اقل منه جمالا..

كان سلاحه في اختراق قلب الأنثى هو الإنصات التام لأكاذيبها.. يظل ينصت مثل جهاز للتسجيل، ليس من أجل الفهم ولكن لمعرفة المنطقة المعطوبة التي يمكنه العبور من خلالها إلى داخل كيان الضحية.

"لا أسوار تصمد أمام المدافع الحديثة"، هكذا يقول محاربو العصر الكلسي. يظل إذن يستمع ويستمع حتى تظن الواحدة منهن انه تركها ونام.. ثم إذ به يطلق من الطرف الآخر للهاتف آهة حزينة خفيفة، تدل على مشاركته الوجدانية. وقد يحول أحيانا قصة سمعها من أحداهن إلى ساحة للحزن ويصف صاحبتها بأكثر أهل الزمان حزناً ثم يدعوها لمشاركته أحزانه هو! .. كان له قلب ثعلب،حتى انه وفي الحالات الصعبة قد يفتعل دموعا حين تحكي له امرأة عن فقدها لوالد او قريب.

في إحدى المرات ظل يبكي مع إحداهن لفقد زوجها ليلة كاملة، انتهت بلقاء في الفراش في الليلة التي تليها، وأكد لي بعد ذلك أنهما استمرا ،كنوع من الوفاء، في تعداد مآثر المرحوم أثناء اللحظات الأكثر حماساً.. و سألني طالبا خبرتي فيما إن كان من الطبيعي أن تصرخ باسم زوجها الفقيد بصوت يشبه مواء قطة؟!، وأجبته بأني لم أختبر تلك الحالات بعد، وان هذا قد يعد نوعا من جنون النساء لم أطلع عليه حتى الآن..

حين واجهته باللوم وبوجوب احترام خصوصيات المرحوم على الأقل حتى انتهاء عدة أشهر .. أجابني بأنه يقوم بتقديم واجب العزاء،"يا أخي ألا تعرف عادات العرب"؟! ، ثم نظر إلي بانتصار:

- إنني جالس هنا انتظر ردك.! .. قال لي.

هكذا هو.. لا أعرف أين تعلم المكر ولا على أي يد لعينة تتلمذ ..

سألته ذات مرة حين رايته برفقة امرأة في سيارة تكسي ذاهبين لأحد الأماكن ..

- يا ولد!. ماذا تفعل؟

فقال انه يتوجب علي أن أشكره بدلا من اللوم لأنه يقدم الرعاية لنساء مدينتي.. وغالبا ما يجيب حين أضايقه بأسئلتي إجابات مراوغة.. نضحك بعدها.. من قبيل:

-من أين تعلمت فنون الإغواء؟ هل تقرا إشعارا لدانتي، وأبو نواس وهل تغني لهن أغاني صباح وعبدالحليم ؟!

- لا شكرا .. لقد تركت التدخين قبل سنتين وخمسة أشهر!

او مثل :

- هل زرت جسر الحب في باريس، او بيوت العشاق في براغ، وتعلمت بعض الأشياء من هناك؟.

فيجيب:

- نعم يا سيدي! .. فعلا. أحب العصيدة بزيت السمسم مع القهوة !.

وحين أحاصره بسؤال مقلدا لهجة وقورة:

- أليس لديك أخوات؟! هل ترضى ذلك لامك؟!

يجيب بتمثيل متقن وهو يضع يده اليمنى خلف إذنه:

- أيش؟! .. نعم ؟! .. لا أسمع! ...اعذرني يا أخي فقد نسيت سماعة أذني على وسادتي بالفندق!.

كان متكتماً على انتصاراته في العشق، مرحاً.. ويبدو أن هذا النوع من المرح هو الذي جعله مرغوبا من نساء يدّعين أن لا احد على سطح الكوكب قادر على فهمهن، وأنهن مظلومات لم يعرفن في حياتهم سوى اليأس،والألم من أنفسهن ومن الرجال والأطفال والآباء والأمهات،ومن الأشياء جميعا..

مضى عامان قبل أن تعود ذكرى العباءة التي اشتريتها لطاهر حين كنا نعمل في نقل الطالبات للجامعة،إذ زاد هيامه في ملكوت النساء خلال تلك الأيام وتطور لغراميات تعلمها في أسواق المدينة. وأصبح يمارس هوايات، ويواعد نساء، ويتحدث بالهاتف كعاشق يجيد الكذب، ويمثل الأدوار المطلوبة كلها .. متقبلا أباطيلهن بصدر رحب..

قاده ذلك مرة إلى أن قبض عليه موظفو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلبسا بمعاكسة النساء في سوق جديد.. واتصل بي هو أولا بصوت واهن خال من أي كبرياء كمن فقد شيئا عزيزا.. ثم كلمني المسؤول هناك لأحضر وأوقع تعهدات بصفتي القريب الوحيد له هنا، واتضح انه وصفني لهم بأني أكثر رجال العائلة الأحياء تعليماً وحكمة، وأنني خاله الأكبر وابن عمه في نفس الوقت..

في تلك الفترة كنت قد وجدت عملاً في وكالة بريد ليست بعيدة كمصنف للرسائل، وموزع لها على الصناديق البريدية، وقد أقوم أحيانا بنقلها للمركز الرئيسي. كنت اعمل في جميع الأعمال .. لا ولد، ولا زوجة، ولا دراسة، واغلب وقتي أقضيه هنا في البريد أو في استراحة الأصدقاء أو في شقتي الصغيرة التي يشاركني طاهر السكن فيها.

حين وصلت مبناهم شاهدت في الخارج سيارات كبيرة وتخيلت ابن العم البائس وقد نقلوه بلا شك في إحداها .. وجدت لوحة مكتوب عليها "مدير المركز" فدخلت مباشرة وجلست هناك لوحدي على كنب جلدي بني اللون يشبه ظهر حصان .. كان المقعد مهترئاً من كثرة الاستعمال.

قدمت نفسي لهم بسرعة كمعلم للغة الانجليزية في المرحلة الثانوية وتصنعت رصانة تعلمتها من صديق طفولة اسمه عباس،كان يستمتع بالجلوس على مقدمات السيارات في حينا حتى في أوقات الظهيرة ..

كان عباس يمثل بالنسبة لنا أسطورة الحكايات البطولية بعيدة المنال. مرة يحكي عن عمه الذي حارب في فلسطين وأسر عددا من اليهود.. ومرة عن خاله الذي قاد سفينة حربية إلى حدود جيبوتي بدون طعام ولا شراب، ومرة يحكي عن نفسه حكايات حب نصدق اغلبها بفعل طريقته في رواية القصة والتي تقوم على الثقة المفرطة الذي يسميها بعضنا "الثقل" .. يظل يحكي ويحكي حتى نصدق كل ما يقول .. وبعد مدة سألته أين تعلم الثقل فلم يتجنب سؤالي وبادرني بقوله:

- في الهند!.

- "تعلمت ذلك في الهند وسريلانكا". واعتقدت انه يكذب، لكني اكتشفت فيما بعد انه بالفعل سافر مع والده للهند فيما مضى ..

كانت له أكثر من تسمية .. أشهرها عباس أبو كشاف لأنه حمل لمدة طويلة كشافا رخيصا متوسط الحجم اشتراه له أبوه حين نجح متجاوزا المرحلة الابتدائية مع دراجة يقوم بتزيينها بريش النعام الملون في مقدمتها وعلى الكرسي الخلفي.

لم يركب عباس هدية نجاحه سوى مرة أو مرتين إذ خطر له أن يؤجرها لنا ولأبناء الحي المجاور، ونجح الأمر، فقد كنا نحجز الدراجة قبل أيام وكأنها مقعد في طائرة. على شرط أن نعيدها سليمة، مع تحمل قيمة ساعات التأخير فيما لو تأخر البعض عن موعد التسليم. وتبعا لذلك فقد كانت محافظ الآباء في حينا تنقص كل يوم بعض الريالات ذاهبة لجيب عباس الذي كان يتعامل مع الجميع بوضوح: "سلم واستلم"!.. رافضا مبدأ الدين، وفارضا على الجميع الدفع نقدا والآن!.

في بعض الأحيان نقوم بمساعدته في إعادة صبغ الدراجة بلون آخر وخاصة في الإجازة الصيفية التي تكثر فيها الحجوزات، وفي أثناء ذلك نقوم بالاعتذار عن تقديمها كونها تحت الصيانة.

- "الدراجة مشغولة"!.

سميناه أيضا"أبو الحروف". كانت التسمية تلك لأنه وصل إلى نهاية المرحلة الابتدائية وما زال لا يعرف كتابة بعض الحروف بشكل صحيح، فقضى في الصف

السادس لوحده ثلاث سنوات إضافية، في الفصل ذاته وعلى الطاولة والكرسي ذاتهما.. وعلل ذاك في مناسبات كثيرة بأنه بعد أول رسوب له،ألقى على الزجاج الأمامي لسيارة مدرس الرياضيات بيضة استلها من طبق في مقصف المدرسة، وتحرى المدرس عمن فعل ذاك وبعدها أقسم بشرفه أن عباس لن ينجح حتى تقوم جدته من قبرها أو أن يخرج اليهود من قريته الواقعة في سهل بين حيفا ويافا..

ظل عباس ينتظر قيام جدة المعلم ثلاث سنوات كاملة، كنا خلالها قد ودعنا المرحلة المتوسطة إلى الثانوية وهو بالكاد يستلم شهادة تخرجه.. وأظنه قضى سنوات عدة في المرحلة المتوسطة ليس بسبب البيض أو حروف اللغة العربية، ولكن هذه المرة بسبب أحرف اللغة الإنجليزية .. لكنني اجزم انه خلال تلك الفترة الطويلة اكتسب قدرات فائقة سبقنا بها، في التخاطب والتأثير والاستماع والإنصات، وبرزت قدراته الذكية تلك التي افتقدناها بسبب الركض السريع بين مراحل التعليم.. كل يوم نحل الواجبات، وكل يوم نستمع لمدرسين، نعم يدرسون! ،لكنهم لا يعلمون شيئا.

لم نصدق خبر نجاحه إلى أن تطوع وفد من أبناء الحارة وذهبوا للمدرسة بعد اختبارات نهاية العام وقرؤوا النتائج المعلقة على الجدار الخارجي فوجدوا اسمه مدون هناك بالفعل:"عباس احمد نوري عباس"! ..

عادوا للحارة فرحين بالخبر الجديد حتى إن واحدا منهم أو اثنين رقصوا بالفعل عند رويتهم لعباس من بعيد بينما هو متربع على مقدمة إحدى السيارات يبتسم.. ووصل الجميع إليه راقصين محيطين به، وكأن ابتسامته تجذبهم بخيوط غير مرئية،رقصنا يومها في احتفالية صغيرة كتعبير عن الولاء الذي غالبا ما يكون بين أبناء الحي الواحد، بينما ظل هو يقف بيننا متثاقلا باسما، مغرورا بالنجاح المتأخر..

حين أكدنا له الخبر اليقين قال:

- "أخبرتكم. إذا أردت النجاح من قلبي سأنجح!".

سألني رئيس مركز الهيئة في أي ثانوية أعمل. كنت قد تلبست شخص عباس بالفعل، فذكرت دون تأخير اسم الشارع الصغير الذي تقع عليه شقتي.

خلال ثوان طافت أسماء كثيرة في ذهني بسرعة البرق ،وكأنها طرائد انطلقت فجأة في صحراء ذاكرتي. كان علي أن اختار اسما لإنهاء الموقف بحزم دون تردد،كما بدأته..

ذات السلاسل،ذات الرقاع، عبدالله بن عباس،ابن كثير ،ابوبكرالرازي والأحنف بن قيس وعنترة بن شداد والخنساء.. وذي قار، النعمان بن ماء السماء .... كلهم طافوا بي حينها..

- مدرسة طه حسين الثانوية بارك الله فيكم !.

فكرت فيما سيفعلونه بي لو اكتشفوا كذبي وأني لست معلماً للغة الانجليزية ولا لغيرها .. حتما سيكتبون محضرا طويلاً عريضاً يتهمونني فيه بالتزوير في أوراق رسمية، وطبعا سيصادرون جوالي باعتباري متهما، وسيجدون بداخله صورا متنوعة يكتبون عنها أنها صوراً خليعة.. وقد يرمونني بالشذوذ حين تقع أعينهم على صورة ابن العم التي التقطها له وهو نائم مفتوح الفم بفنيلته العلاقي وسرواله القصير، بهدف إرسالها لبعض أقاربه في القرية على سبيل المزاح. وسيكتبون أني أحتفظ بألبوم صور لنساء عاريات حين يلاحظون صور ممثلات احتفظ بها.

فيما يتعلق بالإلحاد.. فلا أظن أن الأمر سيصل لذلك الحد، مع أني احتفظ بصورة لصفحة من المصحف تتداخل مع صور متنوعة لنساء ومناظر طبيعية .. وقد يضيفون لقائمة اتهامي أني قاومت رجال الأمن-الذين هم بالطبع-،وأنني اعتديت على أحدهم بسكين..

كاستباق للأحداث في بناء مستقبلي،فكرت في الفترة التي سأقضيها في السجن، والأشياء التي يمكن أن أفعلها هناك، والمهمات التي يمكنني الانخراط فيها لكسب الرزق ولتعلم ما يمكنني تعلمه.

وقع اختياري في البداية على مهمة توزيع رسائل السجناء وتنسيقها في مجموعات باعتباري موظفا في البريد، لكنني لم أكن متأكداً من أن السجناء عندنا يكتبون رسائل يدوية لأقاربهم ففكرت في شيء آخر .. ولكون طبيعتي الشخصية لا تتقبل العمل مخبرا سريا بين زملائي السجناء مقابل الحصول على بعض المال والتسهيلات من إدارة السجن، فقد اتجهت بتفكيري كله للمهن اليدوية ..

مهنة خياطة أزرار الملابس للحراس والضباط تبدو مربحة وجذابة، خاصة بعد تخليت عن الفكرة التي ألحت علي بقوة لبعض الوقت وهي توزيع بطاقات شحن الجوال وذلك بسبب خطورتها التي قد تؤدي إلى مضاعفة مدة السجن عدا أن إمكانية سرقة بطاقات الشحن ستكون سهلة في مكان كهذا. بدأت في تجميع معلوماتي المشتتة بشأن حياكة الأزرار، ومدى الأرباح التي يمكن تحقيقها،خاصة إذا أخذنا في الاعتبار إمكانية شراء الأزرار من محلات الجملة، مع إمكانية توسيع العمل ليشمل خياطة الفتحات الناتجة عن الاستخدام الطويل، بالإضافة لتقديم خدمة

خياطة الملابس لأسر الحراس وزوجاتهم، وتقديم تصاميم لفساتين تليق بزوجات الضباط عند الطلب.

فكرت أن مجالا كهذا قد يكون بابا للرزق بعد قضاء فترة السجن عن طريق افتتاح خياط نسائي يتطور فيما بعد ليكون مؤسسة كبيرة لها سمعتها في السوق.. وحسنا!، ماذا عن العمل في الترجمة بين الأجانب وبين مسؤولي السجن؟،لكن العائق الوحيد في هذا السبيل هو أن المسؤولين هناك قد لا يثقون في ترجمتي باعتباري واحد من السجناء يمكنني تحريف أقوال المتهمين زيادة ونقصانا .. لكن هذا العمل جيد بشكل عام كعمل مساند يمكن مزاولته في حال طلب ذلك ..

بعد إجراء عمليات حسابيه سريعة للأرباح التي يمكن تحقيقها وصلت للحظة سلام نادرة، ولم أعقد اشعر بالغضب على ابن العم ولا على عباس النوري . كل ما أردته هو أن تنفتح أبواب المستقبل وأن أرى عالمي الجديد وجها لوجه ،كيفما كان ..

ذكرت اسم المدرسة وأنا انظر في عينيه اللتين اختفتا وراء نظارة سميكة،وانتبهت بعد فوات الأوان إلى أني ذكرت آنفا اسماً قد لا يكون مسجلا في أي من سجلات الوزارة بعد، ولم أعرف لم انطلق من ذاكرتي مع وجود أسماء كثيرة تليق بالمناسبة.. ولم أكن أدرك مخاطر أن تتلبس أرواحنا بأرواح آخرين حتى تلك اللحظة .. وربما حدث ذلك بسبب الحر وضيق المكان،أو بسبب جلوسي غائصاً في كنبة مغبرة، ظهر جزء منها على شكل إسفنج بقيت أتحسسه بيدي اليسرى متمنياً في لحظة ضعف إنســاني أن يكون بداخله عقرب تلسعني وتريحني من هذا العذاب ..

لا أعلم إن كانت تلك أسباب تدفع المرء لخوض أفكار وأقوال ليست من صميم ذاته. المهم أني قررت خوض معركتي من البداية حتى النهاية، كيفما كانت النتيجة .. وبكل الأحوال فسوف تحسب لي كمحاولة جيدة.

سألني المدير وهو يفتح ملفات أمامه ويغلقها، ثم يشرب من فنجان قهوة لم أدع لها، ويرد على اتصالات هاتفية بكلمات سريعة خفيضة النبرات ..

- وكيف حال مديركم أبو هاني ؟!

شعرت حين ذاك بأنني إنسان حر الإرادة، أفعل ما أشاء في هذه الدنيا القصيرة، أدخل السجن حين أريد وأنجو منه حين أريد.. لا يهم أن أكون في الداخل أو في

الخارج .. فقدت الإحساس بالزمان والمكان، وصعدت خارج الغلاف الجوي الذي طالما كبلني بقيود الخوف من المجهول،الآن اشعر بأن وزني لا يتعدى وزن ريشة .. لا خوف ولا ترقب، ولا تأنيب ضمير .. وخاطبني من أقصى الأرض صوت أمي: " يابني خوفك لا يغير من المجهول شيئا.."!. أدركت أنني استطيع ان افتعل كل شي كما يفعل عباس احمد اللعين، وخالجني شعور أني وهو في تلك اللحظة فرسان يجريان فلا يسبق احدنا الآخر في أي شيء.. والأهم أننا سواء في الثقة المطلقة ،وصاح هاتف آخر في داخلي:

- " يا حامد!، ان عباس أبوكشاف لم يكن سوى خدعة صنعتها أنت!.. أنت هنا،فأنت الزمان إذن وأنت المكان..!

استجمعت ما تبقى مني وقلت :

- هو بخير .. ونعم الرجل!، وقد انتقل لمدرسة أهلية قبل أسبوع ويسلم عليكم.

التفتّ خلفي لأنظر من قال تلك العبارة فإذا هو أنا! .. فأدركت أني مخطئ وأن عباس أحمد شخص حقيقي حاضر معنا في هذه الملحمة الكلامية..

قال مدير المركز وهو يمسك سماعة الهاتف للاتصال بمدير المدرسة نفسه ليتأكد مما أقول، أو ربما ليتصل بشخص أكبر شأنا ليتولى أمري،ودارت بي الظنون، وغاصت يدي في الإسفنج تحتي أكثر فأكثر،يائسا من وجود أي عقرب يمكنه أن يخلصني من موقفي ذلك.

بعد المحادثة الهاتفية القصيرة التي بدت لي دهرا كاملا، وتخللها تسجيل بعض الأرقام والأماكن على ورقة أمامه ،رفع المدير رأسه ناظراً إلي بعينين ضيقتين من فوق إطار نظارته السميكة وكأنه يراني لأول مرة ،ثم قال وكأنه يتذكر ما دار بينه وبينه من حديث:

- هل أنت متأكد انه انتقل لمدرسة ثانية؟!

شعرت بأني أشوى على نار هادئة، وكنت قد انتهيت من حساب سنوات السجن المحتملة فوجدتها حوالي ثلاث سنوات يمكن تقليصها إلى سنتين فيما لو أحسنت السلوك، فقلت كمن يستعجل السجان لأخذه إلى مصيره،إذ لا فائدة من تضييع الوقت ....

- تم اختياره لهذه المهمة كان الله في عونه ..

تحدث المدير مرة أخرى في الهاتف وكان الطرف الآخر امرأة في هذه المرة، عرفت ذلك من طريقته ومن خلال صوتها الذي تسرب من سماعة التليفون،فيما كنت انظر باتجاه الباب تاركا الأمور تجري من تلقاء نفسها..

التفتّ إليه وهو يقفل الهاتف وراودني شعور بأني وقعت في كمين محكم صنعته بنفسي، وتمنيت بدافع الفضول لو أن عباس الأخرق موجود هنا لأرى ما يمكن أن يصنعه في موقف كهذا ..

قال المدير وهو يقفل الهاتف:

- عموما،أبو هاني يستاهل كل خير، ونحن نقدر حضورك وكفالتك لابن عمك، وناولني أوراقا لأوقعها قبل أن يخرج. ثم سمعته يشغل سيارته ليذهب ربما لمهمة أكثر أهمية، أو ربما أن عمله انتهى في هذه الساعة..

أمسكت بالأوراق وأنا أشعر كأن رصاصة مرت من أمامي ولم تصبني، وتنفست ببطء شديد مستنشقاً رائحة بارود في خيالي،ومضمرا في نفسي أنها ستكون آخر مرة أتلبس فيها شخصية غيري. "لن أكون سوى ذاتي"!، هكذا قررت في لحظة نورانية شجاعة، وتمنيت وقتها أن أطلق ذخيرة كاملة على ابن العم الذي أوقعني في مأزق كهذا ..

تحول الخوف -بمعجزة-إلى ابتسامة في داخلي وأنا أوقع عدداً من الأوراق التي لا اعتقد أن طاهر سيبدو سعيدا بها، خاصة حين يعلم باني قد وقعت بالنيابة عنه تعهدا طويلا يتضمن تحذيرات بأن يقيم الصلاة، وبألاّ يلبس عباءة تنزل عن رأسه، وأن يلبس ثيابا ساترة لا تبدي مفاتنه بحضور الرجال الأجانب، وأن يكون برقعه غير مظهر لجمال عينيه الصغيرتين كعيني دب بريّ. وألاّ يتبرج أو يستخدم عطورات تثير الرجال في الأماكن العامة. ولكني بخبرتي في إعداد الخطابات والمراسلات أدركت أنها مجرد نموذج عام تم تجهيزه ليوقع عليه جميع المقبوض عليهم، الرجال والنساء والأطفال،والمواطنون والوافدون والساقطات والقوادون، والمتسولات والمتسولون .. كلهم بلا استثناء .. الجميع يجب أن يوقع ويبكي ويتعهد ويتوب ثم يخرج.

كيف سيكون طاهر راضيا، والرجال في قريتنا حين يغضبون يقولون لبعضهم:

- "أنت مَرَه!".

في إحدى الشجارات العابرة قال أحدهم لابن العم وهو في زمرة معه موجها كلامه للجميع:

- "انتم مثل أخواتكم"!،فسحب كل منهم سكيناً من ساقه اليمنى وكادت أن تقع مجزره في ذاك اليوم، ومع هذا بقيت حائرا إلى اليوم، فما الذي يغضب الرجل أن يكون مثل أخته أو تكون هي مثله؟ ..

المهم أني وقعت توقيعاً من اليسار إلى اليمين بحروف انجليزية كنوع من التحدي،إضافة لكونه إثبات لمهنتي المزعومة،لأكمل ما بدأته في هذت اللعبة الخطرة . تجاهلت كل شيء ووقعت، طلباً للخلاص وفي سري أمنية مكتومة بان أطبق بيدي على رقبة ابن العم الذي ساقني لهذا المكان.

في طريق عودتي فكرت بأن اسم "طه حسين" ربما اختلط على مدير المركز باسم آخر،أو أنه قد يكون رجلا فاضلاً اكتشف كل شيء ولا يريدني ان أتمادى أكثر في الكذبة التي صنعت منها حقيقة خاوية..

حين عدت إلى الشقة استلقيت محطم القوى في انتظار أن يطلق سراحه كما وعدني مدير المركز ، والحقيقية أني خشيت ألا يفي بوعده وان يرسله بدلا من ذلك إلى مركز الشرطة، أو أن ينتزع منه اعترافات سيدلي بها طاهر عند أول استجواب. لكني صحوت من خيالاتي حين سمعت صوت قفل الباب ينفتح وسمعته يغني:

- (شفت كثير وقليل! ..اللي بيشكي حاله لحاله.....)

طريقته في الغناء كادت أن تصيبيني بنوبة من الضحك، لولا أن نجحت في قمعها لأفسدت خططي في تأديبه.. ماكاد يسبب الضحك هو لهجته الحجازية المتعمدة ..

توقعت أن تظهر عليه آثار للضرب أو ما شابه، ولكنه بدا سليما معافى.. وقبل راسي ثم جلس بجانبي.

استمر في الغناء وهو جالس عن يساري، ولم يجرؤ على النظر باتجاهي في البداية إلى أن صنع جو عشق خاص به متخذاً من الغناء وسيلة للتعبير عن أسفه، فتركته يكمل :

- "اسقنيها بأبي أنت وأمي"!

ورفع بيده كأسا وهمية وقربها مني مصطنعاً على تقاسيم وجهه النحيل حزناً مضحكا، ثم مدّ صوته في حركة مسرحية وهو يغني وينظر في عينيّ نظرة عشق هائمة تعوّد أن ينظر مثلها لفتياته .

- "املأ الكأسَ ابتساما وغراما"!

كنت غاضبا منه لكني سمحت له أن يواصل غناءه بصوت أقرب للجمال منه للقبح. لم تكن المشكلة في الأداء بحد ذاته، لكنها كانت في طبقة صوته التي لا يمكن أن ترقى لمستوى الكلمات.

- لا لتجلو الهم عني، أنت همّمي!

كان ينظر في عينيّ كمن يطلب الغفران، ويشدد على الأحرف كأنه يستجدي ضحكي المعهود في حالات كهذه ..

هو يغني وأنا أكافح انفجار ضحكة في داخلي .. يقابلها غضب لا يستمر طويلا.

الواقع أني تأثرت إلى حد ما بأدائه للمقطع الأخير، وزاد تأثري حين أسبل عينيه التي تشبهان عيني سنجاب ورفع الكأس بيده.

كان صوته يعجبني بالإضافة إلى طريقة التفافه عليّ، وكان يعلم ذلك، وربما عرف عني أشياء لا أعرفها عن نفسي!،.. فكلما وقعنا في مأزق اخترع لي طريقة ليبهجني بها، وغالبا ما تنجح طرائقه في ذلك و يزول غضبي وأنسى بسرعة..

حين التقت عيناي بعينيه الحالمتين وهو يغني اكتشفت للتوّ تشابها خارقاً بيني وبينه، تقريبا هو أكثر الناس شبها بي عدا اختلافات ضئيلة تتعلق بزاوية النظر للأمور.. أبي مات على فراشه وأبوه جرفه السيل في ليلة مقمرة. أمي تزوجت بعد أبي رجلا واحدا في حين تزوجت أمه ثلاثة رجال،أنجبت من كل واحد

منهم،فأصبح لديه عشيرة من الإخوان والأخوات من جهة الأب والأم، ومن الرضاعة كان لديه أضعاف هذا العدد، فكان مثل حبة شعير منثورة في كيس من الحبوب.

تلطفت معه أكثر حين اكتشفت الرابط الجديد بيني وبينه فتركته يفتعل جواً من صنعه، وراح يلحن ويعالج الكلمات والألحان الصعبة..

- فلقد نام الندامى والخزامى!

وحاولت أن أجد شبهاً بينه وبين صاحبة الأغنية فلم أجد، واستغفرت ربي في سري حين استغربت لوهلة أن يكونا من عالم واحد، الملاك والشيطان من طينة واحده.!

صمت قليلا فظننت انه سيسألني عما تم هناك وربما قدم لي شكرا حقيقياً على ما فعلت.. لكنه أغمض عينيه نصف إغماضة،ونظر باتجاه الجدار المسجى بخرقة مربعة، زعم فيما قبل أنها في الأصل سجاد إيراني تحول لونه بفعل الزمن.

مالت عيناه في طقس جنائزي للأسفل وكأنه مضيف طيران سيعلن انهيار الطائرة حالا، ولم أشك لحظة في أنه على وشك الاعتذار عن كل ما بدر منه، أو على الأقل عن مسألة توريطي في ذلك.. وبدلا من ذلك فاجأني بغنائه تارة أخرى، وبصوت عميق هذه المرة وكأنه يغوص في بحر غير مرئي ..

- الرفاق حائرون!

شعرت بأن الفتى القروي يعبث بمنجزاتي للتو!، فقلت بشكل مباغت وأنا أميل بجسدي لليمين بعيدا عنه:

- اسمع يا حبيبي، اسمع!.

توقف عن الغناء ونظر إليّ بوجل .. فقلت بجدية ..

- يا ابن العم.. لقد وقعوني على أوراق كثيرة، و أخبرتهم عما تخفيه تحت سريرك من زجاجات خمر، وكذلك بما لدى ابن خالتك التعيس من مثلها وربما أكثر بقليل!.

وتأكيدا للطعنة التي وجهتها إليه، أضفت بالجدية ذاتها:

- ويستحسن أن توقض الخزامى والندامى، ولا تنس الرفاق الحائرين أيضا على طريقك!،لأنهم سيأتون لتفتيش شقتنا، حسب ما قالوا لي، وقد يكونون الآن في بيت ابن خالتك، مع أنهم حذروني أن أخبرك بأي شيء.

فقال برعب :

- من ؟!

أجبته وأنا أنظر إليه نظرة ساخرة وجهتها إليه بطرف عيني ملتفتاً إليه نصف التفاتة، فيما حرصت أن يكون اتجاه جسدي ناحية الباب وكأنني انتظر أحدا.. بهذا فتحت الطريق لإكمال لعبة تأديبه على طريقتي الخاصة.

- الذين احتجزوني بسببك يا سيد الغرام!.

فنظر إليّ بعينين شاردتين ذهب بهاؤهما وحل محله جمود تام، وقال بصوت مبحوح:

- لماذا؟ لماذا؟.. لا لم تفعل!. فاصطنعت بدوري وجهاً متجهماً حزينا وزارني الطيف العباسي من جديد ففرحت به إذ تراءى لي عباس أبو الحروف، في الأفق بين الأرض والسماء،متكأ على مقدمة سيارة رياضية حمراء. وانتابني شعور أولئك الذين يربون بعض المواشي حتى تكون بينهم وبينها صداقة، ثم يأكلونها إذا حضر العيد،أو حين يباغتهم ضيف عزيز . قلت بمرارة:

- لا حيلة لي .. لقد ضغطوا علي وهددوني بالضرب بالنعال ..

ظل صامتا،وهو ينظر إليّ نظرة متوسلة، كبحار داهمه الموج يلقي بآخر قطعة في سفينته للبحر، وخفت أن تسرقني ابتسامة مفاجئة فحولت نظراتي نحو الجهة الأخرى،ونقلت نظراتي المتوجسة المصطنعة بينه وبين الباب المغلق ..

وأنا ارقبه، قام وأطفأ التلفاز ثم أخرج بالفعل من تحت سريره كرتوناً بحجم كرة سلة، وذهب به للحمام، وسمعت صوت مياه تصب في الحوض، ثم ذهب للمطبخ وأتلف القنينات، ولاحظت جدية وسرعة زائدة في عمله.

سبحت عيني فيما أمامي من منافض للسجائر، وسجاد عتيق عليه أثار حروق مختلفة الأحجام وروائح لعطور معبأة في محلات ضيقة داخل مجمعات أسواق،وأدركت أنها قد تكون سبباً كافياً لإدانة المسكين لو كان الأمر حقيقيا.. وجود جهاز الفيديو وحده بأفلامه المتنوعة ومحتوياته يكفي لكتابة تقرير يلقي بنا سوياً في السجن أشهر عديدة.

مر طاهر من أمامي ورماني بنظرة مبهمة لا تعبر عن شيء وأخذ جواله وسمعته يكلم ابن خالته بعيداً عني ربما لأن ما يخفيه كان أكثر مما توقعت .. وكدت انفجر من الضحك حين جاء المسكين بقطعة من البخور المخلوط وأشعلها بولاعته، ودار بها في أنحاء الشقة وكأنه يستقبل ضيفا مهما..

أعاد ترتيب المكان فبدا مختلفا بعض الشيء وظهرت أجزاء وقطع أثاث لم أكن اعلم بوجودها. مرآة بحجم نافذة كانت مغطاة بدولاب، ومزهرية بها ورود مجففة لا تزال صالحة لتزيين المكان وإدخال البهجة. مجموعة كتب كنت قد فقدتها وإذ بابن العم قد كدسها في زاوية تحت سرير قديم ..

نظرت في المرآة التي ظهرت للتوّ فأطلّ من هناك كائن وسيم نوعا ما.. وجدت له عينين مثل كل الناس لا تخلوان من جمال حتى أن خالة لي قالت في صغري أن لي عيني فتاة. صحيح أنهما تحولتا بفعل السنوات وأحوال الطقس إلى عيني قط مذعور لكن الجمال الأصلي يبقى. وبشكل عام فقد نظرت لرجل مقبول لا يمكن أن ينتمي لعالم الدمامة. ولو أن ملكين أحدهما يمثل الجمال والأخر يمثل القبح تنازعا بشأني وتجاذباني يوما فلسوف ينجح ملك الجمال في جذبي إليه. بمساعدة مني طبعا.

أثناء دورانه بالبخور في الأرجاء أشرت له بصمت إلى غرفة النوم طالبا منه يضع بخور إضافيا هناك، فأسرع إلى حيث أشرت، فأدركت حينها أني أمام إنسان غرّ لم تعلمه الحياة بعد شيئاً ذي بال.

تغير شكل المكان ورائحته ولونه وأيقنت أني أصلح لأكون وزيراً للتمثيل، وشعرت بمدى قسوتي حين أمعنت النظر في نافذة الشقة الوحيدة المغطاة بلحاف أرسلته أمه مع أحد القادمين من القرية موصية إياه ان يتغطى به عند نومه خوفا من برد المدينة الذي يدخل في العظم.

كنت أكبر منه بسنين معدودة، لكن خبراتي في الحياة كانت تسبقه بمسافة..

لم أعد احتمل المزيد خاصة حين سمعته يردد مع المؤذن بعض الكلمات فيما صنع بخوره جوا ضبابيا يكاد أن يكتم أنفاسي، ويحجب الرؤية أمامي.

وفي إحدى جولاته الخاطفة من أمامي وهو يقوم بإصلاح ما يمكن إصلاحه أمسكت بثوبه وأنا أقوم بتشغيل التلفزيون بجهاز الريموت، وقلت له:

- أيها البدوي الجبان.. اجلس رعاك الله!

فجلس في مقابلي ثانيا قدميه تحت مقعدته كمن يصلي، وقد تسمرت على وجهه نظرة شهباء شاردة، فقلت بهدوء:

- لن يأتي أحد لتفتيش بيتنا.. كنت أمزح معك!.

القسم الثاني

هنا.. في هذه البقعة من صحرائي .. يلتقي البحر بالرمال. تتقاطع قوافل الجمال بطيئة وئيدة،تنقل الأحلام من مكان لآخر. أحلام الصغار والكبار الفقراء والأغنياء.. مع القافلة الواحدة عروس تهدى إلى زوجها ومعها تابوت يقدم إلى ذويه .. معهم حجر الفيروز، يزين صدور العذارى، ومعهم خناجر يبيعونها لمن ينوي الفتك بالحسن والجمال.

يلتقي الماء والرمل وبينهما الإنسان بأحلامه التي تحمل الأمل. مرة يسافر في الماء ومرة في الرمل، يبحث عن إشباع غرائزه . تاريخ الإنسان كله بحث.. يبحث عن الكنز والمال والسلطة والحب، ويظل يبحث ويبحث ، فمتى يستريح؟ .. "الكنز في داخلنا" هكذا تقول الكتب القديمة .. الفلاسفة يقولون هذا وأنا أصدقهم .. الكنز أنت تملكه بالفعل في روحك وفي يدك .. أحد المعمرين في قريتنا كلما سأله أحد عن عمره أعطاه رقما مختلفا، مرة قال لهم بين الستين والسبعين، ومرة قال دون الثمانين، وبالغ مرة وقال لهم تعديت "المية" سائلاً الله حسن الختام .. في كل سؤال تاريخ جديد .. وحين سألته لمَ يغير عمره كل مرة قال إنه يفعل ذلك بحسب الزمان والمكان لا أكثر، وبحسب حالته المزاجية.. إن كان سعيدا أعطاهم عمرا أقل. وإن كان غير ذلك رمى بنفسه بعد المئة من السنين.. قال إن العمر هو الزمن!، وأن الزمن كائن خرافي لا وجود له ..

- "الإنسان هو الزمن يا بني". كلما عاش أكثر ابتعد أكثر عن تاريخ مولده واقترب أكثر من الحقيقة، هذا كل ما في الأمر .. يقول:

- لا يهم كم عشت وقتاً .. المهم هو كم عاشت روحك من لحظات السكينة!

في طفولتي المتباعدة عشنا تحت أكوام من الصفيح في منزل عمي بضواحي المدينة المتنامية، وتعلمت من الحياة في سنواتي الاثنتين والثلاثين ما قد يتعلمه فيلسوف روماني بلغ المئات من الأعوام .. ليس فخراً ولكنه شكل من أشكال العرفان لخالقي ..

بدأت بتعلم أسرار العلاقات الزوجية من خلال رعايتي لقطيع صغير من أغنام البيت. وتعلمت ملاطفة النساء حين عملت في دكان لقريب أمي لبيع الملابس..

وأدركت سر قوة الإنسان حين تعلمت قيادة شاحنات النقل والحافلات متنقلاً بين مدن متباعدة، حيث لا رفيق في الطريق سوى الوحدة وأصوات الغناء الأصيل.

من "العم" تعلمت الكثير .. حين كنت أجهز الشاي والقهوة وأغسل الفناجين للضيوف في مجلسه كنت استمع لحكايات وحوارات أخذتني بعيدا لعوالم لم أحضرها وأدخلتني لحريم لم أحلم يوما أن أدخله، ومن هذا المكان بالتحديد تعلمت الحكايات التي أسرت لبَّ سيدات وسادة التقيتهم في مناسبات عديدة. وليست السيدة روبنسون سوى أحد الذين وقعوا في سحر غواية الحكايات الشرقية. ولطالما أحببت الصمت والإنصات وأطلقت لخيالي مداه لكي يركب قصصا تشبه ما اسمعه في مجلس عمي، أو لعل أحدهم نسي إكمال حكاية كم يجب فأقوم نيابة عنه بإكمالها في خيالي قبل النوم. وأحيانا لا تعجبني طريقة أحدهم في سرد قصة ما فأقوم بسردها بطريقة الحكواتي الصغير الذي كنته آنذاك مضيفا إليها ومنقصاً بحسب الحالة وبحسب ما يقتضيه الزمان والمكان.

قاصدين منطقة الآثار التي خلفها قوم ثمود،وبعد ساعة من سيرنا باتجاه الشمال تاركين وراءنا المدينة،على الطريق المسفلت الذي كنت أحفظ تفاصيله مثلما أحفظ ألوان جدران غرفتي الصغيرة، توقفنا للاستراحة، ولمشاهدة البحر والصحراء ..

كان الفريق الذي أقوم بمرافقته هذه المرة مكوناً من عالم الآثار السيد "روبنسون" وزوجته "نادين" و الفتى الألماني"يوهان" وصديقته النمساوية "جوليا"، بالإضافة إلى مندوب عربي من مصلحة السياحة يقضي أغلب وقته في محادثات بهاتفه المتنقل، أو نائما في آخر الشاحنة.

- سيد حامد، خذ!.. أعتقد أنني وجدت جزءاً من شجرة راضية. لقد وجدت ريحانا!.

كنت أرقبها وهي تسير نحوي . وحين وصلت مدت إلي شجيرة أثل وجدتها أثناء تجولها بين الرمال، بينما كنت تحت الحافلة أحاول أن افتح صندوقاً للمؤن هناك..

ركعت حين وصلت إليّ، فقلت على طريقتهم، وأنا أتلمس شجرة الأثل الطرية:

- إنك بارعة ولاشك؟!.

كنت قد قصصت من قبل للسيدة نادين وبعض أفراد الفريق حكاية زواج راضية بنت محمد ويلقبونها محمدية،برجل اسمه عطية المسعودي نزل مع أسرته

من الجبال الموالية للقرى المبعثرة أسفل الوادي، وسكن في إحداها. حكيتها كما سمعتها في مجلس عمي من أحد الحاضرين الذين لم يأتوا للمدينة سوى مرة واحدة لإجراء عملية استئصال مرارته في المستشفى الرئيسي فاستضافه عمي على عادة قبيلتنا في استضافة أي أحد يفد من مكان بعيد حتى لو كان مريضاً .. المهم أني كنت احكي قصة راضية من ذاكرتي وفي كل مرة كانت بعض الأسماء تختلف وربما الأحداث لكني حاولت هذه المرة أن أكون منصفا ومراعيا للدقة الى ابعد حد. كانوا يحبونها في كل مرة أقولها وكأنهم يسمعونها لأول مرة.. فهل هذا ما يسمونه سحر الشرق ؟.

أول مرة قلتها حين كنا في بهو الفندق الذي نزل فيه الوفد بانتظار مندوب من السياحة والآثار، وكنت أتنافس وقتها مع مرشد آخر على اصطحاب الوفد فرأيت انه من المناسب أن ابرز مهاراتي في الحكايات فرويت لهم شيئا مختصرا من حادثة راضية، ومع مرور الوقت صنعت القصة بيننا رابطا من نوع ما ..

أعدت غصن الشجرة الصغير إلى نادين وقت لها وأنا أخرج من تحت الحافلة ..

- بالفعل لقد كانت راضية تلبسه في ليلة زواجها، لكن هذا اسمه "برك" وليس ريحان.

تدور القصة التي سمعتها منذ زمن الطفولة حول عروس كانت قد تعاهدت مع شاب تحبه آن يتزوجا، إلا أن يحول دون ذلك الموت، بالفعل فقد انتظرت حبيبها الذي غاب وراء الجبال في طلب الرزق لسنوات طوال.. وحين أرغهما أهلها على الزواج من رجل آخر هربت في ليلة العرس ولم يستبينوا أثرها في تلك الليلة شديدة الظلام.. وحدث أن أخطأت الطريق إلى قرية أهل والدها متعثرة بملابس العرس ووصلت لبداية واد تتجمع فيه السباع والذئاب، وحين فقدها أهل العرس انطلقوا بحثا عنها بالفوانيس على شكل جماعات وأفراد .. وانقضت تلك الليلة دون جدوى، لكنهم في الصباح عثروا عليها جثة ممزقة، قاموا بجمع ما تبقى منها ودفنوها في قبر قريب من قبر أبيها.

أصبحت روحها من ذلك الوقت تتردد في أنحاء القرية وفي القرى المجاورة .. يقسم فلان انه رآها جالسة في حقله تأكل حبات من اللوز فينطلق لرؤيتها من كان موجودا لكنهم حين يصلون لا يرون سوى الزرع والغبار. وتقسم امرأة أنها رأتها تطحن الحب في بيتها عند منتصف الليل لكن أهل الدار حين توقظهم لرؤية راضية لا يرون سوى المطحنة وحيدة وعليها آثار حب تم طحنه للتو .. وحلف رجل من أهل المكانة أن راضية أوقفته وهو عائد من السوق وقالت له:

-"يابو زهوان .. افعل خيرا، وصلني لبيت عمتي زرعة في الجبل!".

لكنه حين نزل من الدابة لتركب، اختفت الفتاة وبقيت الدابة تصيح وكأنها تبصر شيئاً لا يراه.

انقطعت بعدها راضية عن الظهور لأهل القرية فترة طويلة، إلى أن خرجت عجوز تصيح في ساعة الظهيرة ..

- راضية!.. راضية محمدية في البيت! .. وهرع من كان موجوداً لمعرفة الخبر، وكان زيدان أول الواصلين .. وبالفعل فقد رأوها كما هي لابسة ملابس عرسها، واضعة على رأسها إكليلا من الريحان والبرك، مع عقد من الفلّ على صدرها،بنفس هيئتها حين تركت القرية قبل واحد وعشرين عاماً..

رأوها تحرك المرق في قدر لأهل المنزل .. وبكى بعض الحاضرين لكن أحدهم تشجع وسألها بريق جاف :

- أنتي راضية زوجة ابن مسعود؟!

وابتسمت وهي تقول بصوت يشبه ضحكة طفل حديث الولادة في شهره الخامس، مشيرة للقدور التي كانت تغلي:

- تغدوا بالعافية!.

سألها زيدان بعينين مرتعشتين:

- هل أنتي حية يا راضيه يا ابنتي؟

تطلعت إلى الأرض ثم قالت بصوت متألم :

- أكلني السبع يا عم زيدان!.

ورفعت ذراعها اليسرى فإذا هي أشلاء ممزقه مازالت تنزف دما ..

بعض الحاضرين سقطوا مغشياً عليهم، ومن بقي منهم صاحياً استمع إلى الحديث الدائر وكأنه يشهد معجزة.

سألها زيدان وعيناه غائمتان بدموع لا تقف، وبصوت فيه من الحزن ما يكفي أهل الأرض كلهم ،إن كانت رأت ابنه صالح أو زوجته مريم؟

- كيف ولدي صالح؟

فأجابت راضية بعد أن تذوقت مرقة من القدر أمامها بطرف ملعقة موضوعة هناك ودون أن ترفع رأسها عن الطعام:

- صالح يسبح في نهر من الخمر .. وأمه تطير مثل حمامة..!

وكان زيدان قد فقد ابنه صالح وزوجته في ليلة واحدة حين ذهب الطفل ليلعب مع الأطفال بعد ليلة ماطرة فغرق في لجة ماء ظنها الجميع أقل عمقا وحين سقط الطفل هرع الأطفال إلى منزله وكان زوجها بعيدا في أرض له فخرجت أمه تركض حاسرة الرأس، وحين رأت الطفل يقاوم الماء ألقت بنفسها في البركة غير مبالية بشيء، فغرق الاثنان، ولم يلحق بهما أهل المكان إلا جثتين وضعوهما في قبر واحد..

أراد زيدان ومن معه من الرجال الواصلين حديثاً أن يستوضحوا المزيد،فانطلقت أسئلة كثيرة متداخلة لكن رعداً لم يسمعوا مثله من قبل ضرب الأفق الغربي في تلك اللحظة وأضاء بعده برق أحال السماء إلى شعلة من ضوء، وتطلع الجميع شاخصي الأبصار إلى السماء البيضاء ، مذهولين من البرق والرعد الذين جاءا في غير وقتهما من العام .. وحين عادت أنظارهم إلى حيث تقف راضية كانت قد اختفت ولم يروا سوى القدور التي تغلي، وقطرتين أو ثلاث من دم صاف على أرض البيت.. فيما بقيت رائحة بخور تأخذ بالألباب في المنزل لشهر كامل.

بقيت القدور تغلي بما فيها من طعام حتى تجاسر أهل البيت وبعض من توافد من النساء وأكملوا الطبخ الذي بدأته راضية، مضيفين إليه مزيدا من اللحم وبعض الملوخية الخضراء التي تم تقطعيها على عجل، وذلك حسب طلب بعض الحضور. وحين أرادوا إعداد الخبز وجدوا أن راضية بالفعل قد سبقتهم وجهزت العجين، ووضعته في التنور ولم يكن عليهم سوى أن ينتظروا لبعض الوقت ليقوموا بإخراج خبز البر،مضيفين إليه العسل والسمن. حين انتهوا من إعداد كل شيء، أكل الرجال أولا على شكل جماعات توزعت في أنحاء البيت ثم تلتهم النساء.

أكل الجميع طعاما لم يذوقوا مثله أبداً، كفى القرية كلها ذلك اليوم، حتى أن قلة من النساء أرسلن في طلب صواني وصحون إضافية لحمل المزيد من الطعام قالوا انه لأولادهن النائمين، ولبناتهن الخجولات من حضور وليمة جماعية كهذه، ووصلت الأواني الملونة بالأحمر والأصفر على شكل مثلثات في سلال مصنوعة من القصب معلقة بأيدي الصبية الصغار.

كان الطعام طيباً إلى حد إن إحدى الجماعات المتحلقة طلبوا من بعضهم التوقف عن الأكل إلى أن وصلت قرون الموز التي طلبوها خصيصا من سوق الظهيرة محملة على ظهر ثور، ذلك من أجل إضافتها للأكل ليكون مذاقه أفضل.. في حين أرسل بعض الجالسين من الرجال أولادهم،-والأولاد منكبين على الطعام- لإحضار إضافات على شكل توابل،وصلت جميعها متأخرة بعد فراغ الناس مما أمامهم، والسبب هو أن الأطفال المرسلين كانوا يقومون لتلبية الأمر من المجموعة التي هنا ليندسوا بين المجموعة التي هناك،ضاربين عرض الحائط بطلبات والديهم، معتمدين على أن طيب مذاق الطعام سوف ينسي الآباء ضعيفي الذاكرة في الاصل، ما طلبوه مسبقا..

تحول المنزل إلى ما يشبه المهرجان، ولم يعلم بعض القادمين الجدد سبب التجمع الحميد، إلى حدّ أن عددا منهم صرخوا أثناء خروجهم بعبارات تهنئة ودعوات لأهل البيت بأولاد يصبحون أطيب من آبائهم، ظناً منهم أنها حفلة عرس، أو تمائم لمواليد جدد.

فيما سبق من حياتي وخلال فترة عملي في البريد، عطف علي مدير الوكالة البريدية وربما رآني مجتهدا في انجاز ما يوكله لي من العمل فأرسلني لدراسة اللغة الانجليزية ضمن بعثة يترشح لها عدد محدود من طلبة الجامعة والمعاهد .. وبقيت متنقلا في بلاد الإنجليز عاماً كاملا،أتعلم وأحاول أن أربط الأمور ببعضها. والأهم من ذلك أني عدت وأنا أتحدث اللغة الانجليزية بشكل رائع كما قال المدير الجديد لفرع البريد،والذي استقبلني، على سبيل الاختبار،بأسئلة معوجة الألفاظ والتراكيب كان قد تعلمها في شبابه،وبألفاظ غير مستعملة،فرددت عليه بلهجات متنوعة .. مرة بلهجة من ويلز وثانية من ليفربول،وختمتها بإجابات تعود كلماتها للعصر الفيكتوري، فاثني علي منسحباً ورحب بي من جديد ..

حين كنت هناك أدرس .. وجدت طريقتهم مختلفة في التعبير. حين يريدون شيئا يمهدون له بعبارات تسبقه. نحن لا نفعل ذلك، وإنما نلقي بما نريده دفعة واحدة معتبرين ذلك نوعا من الصراحة، بينما الحقيقة أنهم كانوا أكثر صراحة وأعلى

تهذيباً.. يسعون لأهدافهم مباشرة دون تأخير فإن اصطدموا بالعوائق أعادوا الحسابات من جديد وانطلقوا .. نحن نلف وندور على الهدف، وكأننا نخشى من النجاح والوصول للهدف، فإذا اصطدمنا بما يعيقنا نرجع محطمين..

رأيتهم يضعون خططا لكل شيء، للفرح خطة وللحزن خطة ، خطة للكوارث وخطة لأعياد الميلاد. حتى الفشل له يضعون له احتمالات وكأنه جزء من العمل او كأنه شيء قابل للحدوث في أي وقت. لم اسمع أن قائدا عربيا في أحد الحروب قال : "لقد فشلنا سوف ننسحب" .. عندنا لا انسحاب!، يجب أن يموت الأعداء جميعا أو يموت جيشنا كاملا.

درست اللغة الانجليزية مع عائلة تقيم في إحدى ضواحي مانشستر الجميلة. كانت الخادمة في المنزل تقول أحياناً:"سيد حامد آسفه!، لقد سمحت لنفسي بتنظيف غرفتك أثناء غيابك".. "سيد حامد! أقدم اعتذاري الأكيد، لقد سمحت لنفسي البارحة بتلقي مكالمة نيابة عنك أثناء تواجدك في الخارج". أو تقول سيدة المنزل: سيد حامد، أخشى أنني لم أفهمك بشكل كامل هل يمكنك أن توضح لي..... ، وأشياء من هذا القبيل.

كنت وقتها في نهاية العشرينات من العمر أتحدث الانجليزية جيداً لكنها ممزوجة بلكنة عربية، وبتعبيرات نقلتها من صحرائي كما هي، فكانوا يضحكون في كل مرة أركب جملة أعتقد مزهواً أنها سوف تعجبهم. لكنني اكتشفت في زمن آخر بأنني كنت وقتها كمن يكتب مرة تحت السطر ومرة فوقه في المرحلة الابتدائية. كانوا يشجعونني دائما وكأني ألّفت قاموساً: "أحسنت!"،"صحيح!".

- "هذا هو ما نقصده بالضبط".!

الأوربيون حين يريدون أن يعلموك شيئا يقولون هل تريد ان نتشارك المعرفة في كذا وكذا؟!.

إذا لم يعرفونك ينادونك بالسيد. ينادون الشخص بأحب الأسماء إليه وغالبا ما تكون من اختياره .."ماذا تحب أن نناديك، مستر حامد؟

-"حسنا سنناديك جو! هل يناسبك ذلك يا سيد حامد؟..
-"طبعا يناسبني!"
-"وإذن! .. جو ، هل تذهب معنا لحضور مباراة الهوكي اليوم؟!"
-"طبعا اذهب"!

- جو.. هل تحب ان نتوقف لشراء القهوة؟
- طبعا أحب ذاك، وأفضلها بالحليب أيضا..!
- و هل لك حبيبة في الوطن يا جو، فقط أخبرنا ؟!
-لست متأكدا بهذا الشأن.. يبدو أن الوقت لم يحن بعد للتفكير في أمر كهذا.
-حسنا .. لن نضغط عليك أكثر يا جو.. يمكنك أخبارنا حين ترغب في ذلك..
-طيب! ، عندما أحصل على إجابة ستكونون أول من يعرف ..

حين تحدثت معهم على هذا النحو شعرت أنني أصبحت كبيراً بما فيه الكفاية لأدخل من أي أبواب الحضارة شئت .. لقد أصبح لي إذن إرادة وتفكير.. أقرر متى أشاء. إذا قررت أن أحبّ أحبّ، وإذا قررت انه ليس وقتا مناسبا للحب فهو كذلك .. أعجبني هذا الشعور، أعني شعور الاختيار. أريد هذا ولا أريد ذاك.. أحب كذا ولا أحب كذا.. يناسبني ولا يناسبني . ويا له من شهور إنساني عميق!.

أتذكر أننا في أثناء مرورنا ببلدة صغيرة في أطراف الريف الانجليزي قالت لي السيدة: سنمرّ في الطريق على حي الرسامين، وتوقعت أن أجد محلات لبيع اللوحات الفنية والفوانيس العتيقة، لكننا ألفينا أنفسنا في شارع يقف اغلب الناس فيه منكبين على لوحات مختلفة الأحجام يرسمون ويرسمون، وسألت السيد لماذا يفعلون ذلك بدلاً من ذهابهم للعمل؟ .. فقال ببساطه أن هذا هو عملهم لأنهم اختاروا أن يفعلوا ذلك ..

في قريتنا كنا نسمي الأصدقاء بأسماء حيوانات أو عاهات،وأحيانا بأسماء الحشرات.. جاء سعيد الخنفس. وذهب خالد الجحش. قابلت عبده أحمد، وحين تسأل من عبده؟ يقولون: أبو ذنَب! ، فتقول آها عرفته!..وتطول القائمة،حمدان النملة،ومرعي الأصم، وحمد الأعرج.

غنت في الحفلة سعدية الطرشا، ورقصت هند العرجا،وقابلت فلان الأعور، وسلمت على فلان الأصقه. وتتعدد السمات والأوصاف بفعل المظاهر وحسب.

الغريب أن مرعي الأصم كان أكثرنا رهافة للسمع، حتى إنه يعرف نوعية السيارات القادمة في الليل من صوت محركاتها وقبل أن تصل بمسافة بعيدة وحين تصل يكون الأمر كذلك.

مرة سمعنا صوت قطط تتعارك من بعيد، فقال مرعي إنها بلا أدنى شك أربعة ذكور تقتتل للفوز بأنثى واحدة. وبالفعل تحققنا من الآمر ووجدناه صحيحا. في البداية كانوا ثلاثة فقط وبدت الحيرة على مرعي الأصم قليلا ، ثم لم يلبث القط الرابع أن ظهر من تحت سيارة كان قد أختبأ تحتها حين رآنا قادمين. .. وعن التسمية،فلأن أذنيه كانتا صغيرتين فحسب، ووجد البعض انه من المناسب تبعا لشكل أذنيه ذلك أن يكون أصم.

لم اعتذر في حياتي سوى قليل من المرات، بالأحرى أن أقول كلمة الأسف، لكن أكثرها ألماً كانت مرتين! ،أحداها في مجلس عمي حين سمحت لنفسي أن ابدي ملاحظه بشأن موضوع ما وصححت بطريقة مباشرة وفضة، تاريخاً كان قد أخطأ فيه الراوي. توقعت أن أنال مكافأة على ذلك لكني تلقيت توبيخاً ساقني بعده عمي مثل كلب أجرب إلى المجلس، بعد أن كنت قاطعته ذاهبا لحجرة أمي في آخر المنزل. طلب العم، كنوع من التأديب،أن اعتذر من الضيف وفعلت، بعد كان الخلاف الذي تسببت فيه قد تطور إلى ملاسنة طويلة بين بعض الحاضرين، واضطر العم لتقديم اعتذار نيابة عني أكثر من مرة، وكالعادة: "صغير ويتيم" .

والأخرى حين تأخرت عن الوصول إلى المنزل في مانشستر،ووجدت الباب مقفلا في الليل فقمت يضغط الجرس مراراً، ففتح لي صاحب المنزل الباب وهو بملابس النوم .. وفي اليوم التالي لم يتحدث معي السيد أو السيدة عن أي شي بهذا الخصوص.. لكنها المساء قالت لي:

- سيد حامد هل تريد أن تقول للسيد "أوكنيل" شيئا بشأن ما حدث البارحة؟

نظرت إليها مستفهما عما يتوجب علي قوله .. وبعد وقت قصير فهمت أنها تريدني أن اعتذر عن إزعاجهم ليلة البارحة فقلت: حسنا،آسف يا سيد أوكنيل، جئت متأخرا بسبب تعطل سيارتنا خارج المدينة، وانفرجت أسارير السيد فجأة، وعاد إلى مرحه، وكأنه كان ينتظر العبارة السحرية لكي يعود إلى طبيعته.

في أثناء اهتمامي بعدد من الماشية في "حوش" قريب يخص عمي، أخبرته عن الخروف الصغير الذي فُقد في أثناء الولادة، ولم يكن عمي حاضرا وقتها. كان مسافرا لأيام عدة وقمت بالواجب على أحسن وجه إلا أن الحيوان مات بسبب البرد والصقيع الذين داهما منطقتنا ذلك الموسم. رددت مرارا اعتذارات وأسفاً أجابني عليها عمّي في لحظة غضب بأن قال: إنني وإياه"سواء بسواء"!، وكنت أدرك أنه يقصد إنني حيوان، لكني بقيت ليلتي تلك أفكر بجدية..أيهما يقصد العم؟ الخروف

الصغير أم الأم، وتوصلت في النهاية وبحسب ظروف الموقف إلى انه يعني الصغير. وبقدر ما أزعجتني الشتيمة إلا أني فرحت من الداخل حيث لم أنسب لخروف أنثى، إذ من شأن ذلك-لو علم بعض الأولاد في المنزل-أن يصنع لي اسما أو عاهة في الحي تلاحقني دهرا طويلا..

في المراحل المتأخرة من دراستي كانت اللغة الانجليزية هوايتي. حصة اللغة الانجليزية التي يسميها الطلاب: "الانجليزي" كانت واحة لي للاستراحة من عناء الدروس الأخرى.. يضيق الطلاب بها وأنا افرح .. يفرحون ويصفقون إذا غاب معلمها،متمنين له غياباً طويلاً وأنا أشعر بالضيق ..

كان زملائي التلاميذ ينطقون بالكلمات معوجة كأنها شوارع الحي الذي نسكنه، متهكمين بذلك باعتبارها "لغة الكفار"، بينما أشعر بأني أغوص في أسرارها الصغيرة وأعود في كل مرة احمل شيئا جديدا.. دائما أريد المزيد ..

يكتب أغلب زملائي كلماتها باللغة العربية لكي يسهل الحفظ عليهم، فتبدو الأسطر وكأنها لغة مسمارية، لاهي عربية ولا هي انجليزية. وكنت أتفنن. في كتابة أحرفها بخط وسيم فيعجب من ذلك الأستاذ والطلاب ..

دفعني معلم اللغة الإنجليزية السوداني مرة دفعة للأمام حين أحضر معه صفحات من جريدة تصدر باللغة الانجليزية وقال هل تستطيع قراءتها فقلت نعم .. وبدأت أقرا خطاً صغيرا لا أفهم من كلماته سوى القليل، وكدت أعيد الصحيفة إليه لكني أبقيتها في يدي وقلت سأعيدها غدا ولم تعد الى اليوم! .. وبدلا من يأسي أن أقرأها، أعدت قراءة الصحيفة مرات عديدة خلال ذلك العام..

وبقيت اسأل المعلم عن كلمات وتعبيرات، وبالغت في السؤال حتى تمنى انه لم يعطيني الجريدة، ولكنه كان يجيب بلهجة تضحكني وتزيدني علماً في الوقت نفسه .

حين يصيبه الكمد والضنك من بقية الطلاب كان يلتفت إليّ ويكمل شرح الدرس لي وحدي..

- "كيف يا حامد نعرف الفرق بين الفعل المصدر؟.

فأجيب أنا قبل أن يجيب هو ، فيطلب مني أن أعطيه مثالا، فيقوم بكتابته على السبورة. ثم يسألني وحدي أسئلة وكأنه يقدم لي دروسا خصوصية:

- طيب!، كيف نحول الجملة الفعلية إلى مبني للمجهول، فأجيبه بشغف وكأنني طفل اكتشف المشي لأول مرة فانطلق يعدو في البيت بلا هدف. فيطلب مني مثالا .. وهكذا كنا كشخصين يدرسان علما مختلفا، يتناوبان الحديث دون اكتراث لبقية الطلاب. حتى الواجب المنزلي كان يعطيهم واجبا ويعطيني واجبا آخر.. كان هذا يسعدهم،و يفرحني أنا وأستاذي ..

في القطار الذي حملني من مدينتي إلى مدينة أخرى من مدن الشمال قبل نهاية دراستي بوقت قصير، التقيت بمهندس من بورتسموث يحب المرح، له وجه صارم وشفتان ضاحكتان، عمل في شركة للغاز جنوب الجزائر. سألني بعد أن نظر طويلا عبر النافذة إلى حقول الخضرة الممتدة،إن كنت عربيا،فأجبت بأني كذلك.. وبعد تبادلنا لبعض الحديث قال عني إنني أتحدث مثل رجل انجليزي. وبما انه يؤمن بتناسخ الأرواح فهو لا يشك في أنني أمثل الحياة الثانية لصاحب أعمال انجليزي كان يتاجر في ملابس نساء الطبقات العليا، إضافة إلى التوابل الشرقية المحملة من الهند وسومطرة!. أو لعلي أمتلك روح رئيس عمال اسكتلندي من الذين عملوا في بناء قلاع أدنبره ! . شعرت بالخوف وقتها كوني لم أطلع بعد على تعاليم روحية تتحدث عن انتقال الأرواح عبر العصور، لكننا ضحكنا لبقية الرحلة على تلك المزحة وصار يلقبني بمستر حامد كولمان، وظل طوال فترة الرحلة يسألني بشكل جاد قبل ان ينفجر ضاحكا:

- كيف تصف مبيعات قمصان النساء الحريرية لديكم هذه الأيام يا سيد كولمان؟..

وأحيانا يقول:

- حسنا. أين وصلتم في بناء قلعة "كوريسدال"؟ ، وهل الملك جورج راض عن خطة العمل؟

احترت في الإجابة في بادي الأمر، لكنني انطلقت فيما بعد لأجيب على طريقة ابن عمي طاهر،إجابات ضاحكة تناسب الحال:

- يؤسفني أنك لست شريكي .. نعم لدينا طلب كبير في الفترة الأخيرة على ملابس الرقص من قبل سيدات البلاط في باكنقهام!..

او من قبيل:

- إن الملك جورج رجل بخيل.. لا يمنح الأجر الكافي.. لذا فالعمل متوقف لبعض الوقت!.

ومر كثير من الوقت هكذا بألعاب كلامية يخترعها هو وأقابلها بخيال مفعم بالردود الملائمة،وبعد لحظات صمت سألني عن أنواع التوابل التي يجب التركيز عليها لبناء تجارة رابحة .. فنظرت إليه بحزن ، متصنعا الجدية، وقلت:

-حسنا أيها السيد النبيل،ولكني أسف بشأن ما سأقوله لك، إذ إنني غير مفوض من قبل شركائي بالحديث عن أنشطتنا التجارية مع المنافسين الغرباء. ومن جهة أخرى فسياسة شركة الهند الشرقية لا تسمح لكبار موظفيها بالبوح بأسرار العمل!.

ارتسمت على وجهه نظرة حائرة، انفجر ضاحكا بعدها ليقول باني لست في الواقع سوى تلك الروح الهائمة للإنجليزي اللعين الذي مات منذ مدة طويلة ..

ودعني قبل نهاية رحلته في المحطة التي سينزل بها بينما سأواصل رحلتي بالقطار قاصداً بلفاست .. وقال:

- لعلنا نلتقي في حياة ثالثة عندها سأكون رجلا عربيا،وأنت قد تكون حينها وزيرا في التاج البريطاني .. فقلت له محذرا انه يجب ان يعذرني في حال وجدته قد تحول بطريقة ما إلى جارية فارسية جميلة، لأنني لن أتوانى عن شرائه وضمه للحريم في القصر الخاص بي ، فظل يضحك إلى أن نزل ورأيته يلوح لي بقبعته حين تحرك القطار وابتسامة سرور لا تفارقه ..

تسللت من تحت الحافلة وسرت والسيدة نادين إلى حيث بقية الفريق وكانوا قد تفرقوا في الخلاء بعد أن توقفنا للاستراحة وللاستمتاع بمنظر الرمال الممتدة على طول الطريق.

كانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة منذرة بنهار حار من أيام أواخر سبتمبر . بينما تصلنا أصوات طيور البحر من بعيد .

ركبنا الحافلة من جديد وفي أثناء قيادتي سألني السيد روبنسون عن حياتي وماذا اعمل فيها. كان يجلس إلى جانبي فراودني شعور بأننا فارسين نقود الفرس ذاته.

قلت بلا تكلف أو وجل إنني في أول يوم لي في المدرسة الابتدائية كنت فرحانا لأنهم أخرجونا مبكرين لعدم وجود طاولات تكفي لنا جميعا، فجلسنا يومها على حصير ينبعث منه رائحة الغبار. وحين وصلت إلى المنزل وجدت أمي تبكي لان عمي يريد أن يتزوجها..

وفي العام التالي خرجنا من المدرسة مبكرين لأن المياه مقطوعة ولن نتمكن من الوضوء للصلاة، وعندما وصلت المنزل وجدت أمي تبكي لأنها ستنجب طفلا من عمي وليس من أبي. ثم تلاشى البكاء بعد ذلك وحل محله الاهتمام بقبيلة من الإخوة والأخوات بعضهم من أمي، وبعضهم من نساء آخرين، أصبحت وإياهم جميعاً إخوانا. أحببتهم وأحبوني. نأكل سويا في البيت الواحد وندخل نحن الذكور في مشاجرات طفولية جماعية.

لا طفولة تذكر بالمعنى المفهوم للطفولة .. أبي مات بعد وقت من إجراء جراحة لإصلاح خلل ما في معدته، وأمي تزوجت عمي وأقمنا في بيته .. كان يعاملني بنفس طيبة، لكنه واحد من أولئك الذين وهبوا حياتهم للغير .. يستقبل ضيوفا يأتون من قريتنا، يكرمهم ويبادلهم أحاديث مكررة .. يسافر كثيرا لزيارة أقارب له هنا او هناك،يذهب في رحلات تجارية لتبادل الأغنام والسلع. كنت أشاركه بعض المهام حين يكون موجوداً .. كنت حرا طليقا ، لم يعاملني أحد بعنف احتراما لعمي .. ولم أكن كما قد يتبادر لذهن الكثيرين، قليل الأصدقاء. بل أن موهبتي تجلت في اكتساب الأصدقاء..

متعتي كانت في الجلوس، وتبادل الأحاديث واكتشاف المجهول. عن المرأة، والسياسة، والجريمة، والفن،وأمريكا، والجنس.. وأشياء كثيرة.

كل الأشياء الغامضة التي يغيب عني تفسيرها، كانت تمثل لي تحديا .

في سنوات طفولتي تلك وغير بعيد من منزل عمي الذي انتقلنا إليه كان يفترش الأرض بين الحين والآخر،بائع متجول دائم الحضور، حتى لكأنه واحد من عائلة السكان. بضاعته تتكون من الحناء والعطور في العلب الزجاجية الكبيرة التي يصب منها في علب أصغر حسب الطلب، وأطقم أقلام تصلح للإهداء، عبارة عن

قلمين أحدهما يحتاج لتعبئة حبر من زجاجة تباع لوحدها،والأخر لا يكتب إلا في الأسبوع الأول من الشراء.. وألعاب للأطفال تسير ببطارية وهي تصدر أصواتاً وأضواءً لعدة أمتار، ثم تقف عن الحركة بشكل تام، متحولة بعد أيام قليلة إلى أداة تستعملها الأمهات لرمي أولادهن الكبار حين يعصون الأوامر ضاربين إخوتهم الصغار بلا رحمة،أو حين يقضون على السكر والحليب المجفف المعدّين لصنع الكيك المنزلي. وغالبا ما يفلت الأولاد هاربين فترتطم بالأبواب متكسرة إلى أجزاء صغيرة.

ويبيع مسدسات حمراء صغيرة تخبئها الأمهات لعيد الفطر، تضيء حين يضغط زنادها، وأبر للخياطة ومكرات بألوان متعددة ، وملابس تبدو كبيرة دائما حين يلبسها الأطفال ثم ما تلبث أن تصل إلى ركبهم بعد غسلتين اثنتين بماء الحنفيات،وكحلّ نهائي لتلك المشكلة فقد أحضر معه صابونا في أكياس زرقاء صغيرة بدلا من الصابون المغشوش في الأكياس البيضاء الذي يسبب تلف الملابس.

وكريمات في علب حمراء وخضراء مرسوما عليها صورة أسد رابض، ومراهم في زجاجات بيضاء تشع منها روائح جوز الهند ولا يعلم احد عن تواريخ انتهاء صلاحيتها،تصلح لجميع العلل بما في ذلك التواء المفاصل وتشققات القدمين بسبب برد الشتاء. وربما أحضر قدوراً للطهي، قبل شهر رمضان، وملاعق لم يشتريها احد سوى امرأة احمد السوداي حيث اشترت شوكة ظنت أنها لفك عقد شعر ابنتها الملتف مثل شجرة بزروميا، وملعقة ظلت تطعم بها قطة ضالة لفترة طويلة اعتقادا منها أنها مخصصة لغير البشر.

كان يبيع كل شيء جديد يخطر بالبال، إلى جانب العاديات التي تظل ثابتة الحضور في بقشته القماشية .

مرة أحضر ببغاء في قفص أسر به لبّ راشد بن مزروع، فاشتراه فورا بعد أن أقنعه البائع بإمكانية تعليمه الكلام والشعر، حتى انه قد يصبح شاعر محاورة يدر المال مستقبلا .. واستمر بن مزروع عبثاً يحاول تلقينه ولو كلمة واحده طيلة ثلاثة أشهر كاملة، لم ينطق خلالها الطائر سوى في آخر يومين من التدريب بتعبير بذيء أحضره معه من المجهول لا يصح التفوه به أمام الأطفال،-يصف المرأة التي تنزع ملابسها كاملة-بما في ذلك حمالة الصدر-، خارج منزل ذويها طلبا للمال. ومع ذلك احتسبه راشد كبداية لخير قادم يلوح في الأفق.

لكن، ووفي ثورة غضب أخرجت راشد بن مزروع عن طوره، قرر إحراقه، ثم أكلِه بعد أن يسلقه على شكل حساء مع الكمون والكركم، كنوع من رد الاعتبار.

حدث هذا بعد عشر ساعات مضنية، من كظم الغيظ ومخاطبته بالتي هي أحسن،وبجميع اللهجات المتوفرة شمالا وجنوبا .. وحسناً فعل راشد بتأجيل فكرة إحراق صاحب الريش إلى صباح اليوم التالي فقد انطلق في الليلة ذاتها مقلداً عرضة جنوبية كاملة، برقصها، وشعرها، وبدقات الطبول، ومقلدا كذلك السباب الناتج عن الاصطدام أثناء الرقص، بل حتى بصراخ أصحاب الزار وجنيات العشق اللاتي يتكلمن على ألسنة المصروعين عند تقريب صوت الطبل من رؤوسهم وهم مرتمين على الأرض، منهياً الاحتفال بالعراك الذي حدث في ختام العرضة بين شخصين مجهولين،لم يذكر الببغاء الحكيم ألقابهما، كنوع من الحفاظ على الخصوصية تدرب عليها خلال حياته السابقة.

صحي راشد فزعا من نومه تلك الليلة دون أدنى شك منه أن احتفالا للجن يقام في بيته. وبكثير من الشجاعة المترددة فتح الغرفة التي كانت مصدرا للصوت، ولم يكن هناك سوى الطائر الذي أقام المهرجان كاملا..

بعدها أصبح ذو الريش الأزرق حديثاً في كل مجلس، وأقبل مشاهدوه من حارات بعيدة، ومدن مجهولة، سائقاً للحي متفرجين أنعشوا اقتصادها لفترة طويلة، مما جعل أحد باعة سوق الجمعة الشعبي يقسم أنه باع من مراوح القش ما يكفي لتحويل الصيف إلى ربيع!. وحلف آخر، يبيع الحطب الجاف في سيارة على الطريق، أنه باع ما هو كاف لتدفئة البهائم-عوضا عن البشر -في البرد القارس.

استمر الحال كذلك، إلى أن وجد راشد طائره الأثير، ذات صباح، معلقا بقدميه كليهما، في القفص، جثة هامدة.

قام البائع المتسكع بين الأحياء والأزقة بعرض "خلاصة الطبيعة" كما أسماها، لتقوية أعضاء الرجل، زاعما انه اختص هذا الحي من بين سائر أحياء المدينة الصغيرة، لبيع هذا المنتج الذي لا يتوفر في مكان آخر، فتهافت نساء الحي لشراء المادة المذكورة رغبة منهن في رفع البناء المتهدم لأعضاء أزواج يعتقد بعضهم يقينا،أنها لم تعد هناك بين أرجلهم.

وحين تزاحم النساء ذات صباح على بسطة البائع،أعلن لهن ان لديه ما يكفي من المنتج المذكور،وأن لا داعي للمزاحمة للحصول عليه. كما أعلن عن مفاجأته الثانية، وهي إمكانية الشراء، والدفع لاحقا شرط ألا يتعدى ذلك دفعتين فقط، كنوع من إثبات قوة المنتج وفعاليته المجربة.

حدث ذلك بعد انتشار خبره فيما يشبه نميمة حسنة لا يعلم عنها الرجال شيئا، فكن يدفعن نصف المبلغ والباقي مؤجلا حين يصل راتب الأزواج، والحقيقة أن التأجيل

طال حتى بعض الموسرات بهدف التأكد من فعالية الوصفة قبل المجازفة بدفع المبلغ كله.

كان البائع يصر على من تنوي الشراء انه خارج المسؤولية بشكل تام، فيما لو تطور الوضع الحميمي إلى شجار ليلي تعلو فيه الأصوات بسبب إفراط الزوج في المعاشرة.. واعتُبِرَ ذلك بمثابة إبراء للذمة تلقته النساء -وهن خافضات الرؤوس- بضحكات خجولة، مؤكدين بكلمات مبهمة،أنهن مسيطرات وقادرات على احتواء الوضع بجميع الأحوال.

- "تماما كالقطط"!.

انسل التعليق الهامس الذي ألقته مريم وسط الجمع، فخفضت النساء رؤوسهن أكثر، وكأنهن منشغلات بتقليب البضائع،متحاشيات النظر إلى حيث صفّ البائع زجاجاته السحرية، بينما عقولهن تفكر في التعليق الدقيق.

وفي حين كن مطرقات يفكرن فيما قالت، تجاهل البائع ذلك التشبيه مكتفيا ،كمشاركة منه، برفع كفيه مفتوحتين لمستوى صدره،معيداً تأكيد إخلاء المسؤولية. ومع يقينه بدقة التشبيه إلا انه تحاشى إقحام نفسه في تفاصيل تتعلق بعالم الشبق الحيواني.. صحيح أن ذلك يشيع جوا من الألفة تسهل عملية البيع!. ولكن بالمقابل،فمجاراتهن في التطرق للعلاقات غير البشرية،قد يقلل من القيمة السوقية لمنتجه النادر.

وكخدمة مجانية فقد أضاف لوصفته الأساسية، ماءً ذي لون يشبه لون عصير الجوافة معبأ في قارورة مياه صحية من الحجم الصغير ذات غطاء أزرق. رفعتها إحداهن قبل أن تشتري أمام عينيها،لتتبين لونها تحت أشعة الشمس فتراءى لها ما يشبه كائنات صغيرة تسبح هائمة في الماء. وأجابها عن ذلك البائع بان ما تراه ليس سوى فتات الزبيب الأسمر الذي وضع منه مقدار ست حبات في نصف القناني، متيحا حرية الاختيار لزبوناته في اخذ القوارير ذات الزبيب أو تلك العادية:"بزبيب أو بدون؟"، كان يسألهن قبل إقفال صفقة البيع، وموضحا في طريقة استخدامها،أن خلط محتوى القارورة بالماء العادي وشربها على فترات يعد مناسب للنساء، كنوع من الاستعداد والاسترخاء قبل لقاء الزوج المتوثب السابح في بحر من العنفوان المزعوم..

نصف نساء الحي تقريباً،إضافة لخمس نسوة من الحي الواقع شرق شارع العشرين، وسبع نسوة من الشارع الموازي له،اشترين عبوات من الوصفة السحرية واستخدمنها بأشكال متعددة.

لكنهن توقفن عن الشراء دفعة واحدة بعد أن حانت لحظه الحقيقة خلال أسابيع قليله،إذ الوضع لم يتغير أبدا عما كان عليه في السابق،كما صاحت مريم في وجه البائع في لحظة مكاشفة حين طالبها بالمبلغ المتأخر،وأكد بقية النساء الحاضرات ذلك للبائع بكلمات مختصرة في البداية، لم تلبث أن تعالت لتصبح جدالا علنيا بعد أن انكشف المستور.

مثّل البائع دور المذهول من عدم نجاح السائل السحري، ثم أرجع -مدافعا عن منتجه- عدم فاعلية الدواء إما إلى طريقة استخدامه،او لعيب أصلي في أعضاء الأزواج تمنع المادة المجربة من التغلغل داخل المناطق المقصودة . لكن النساء ، بكل الأحوال، توقفن عن شراء ذلك، وعدن لابتياع العاديات التي يبيعها في كل مرة.

وسرت شائعة تأكدت فيما بعد مفادها أن خلطة "الحياة السعيدة" لم تكن سوى قليل من دقيق البر وملعقة عسل رخيص مصنوع محليا،ممزوجان مع تسع حبات من الحبة السوداء، وثلاث حبات هيل، ونقطتين من زيت خروع تم تقطيره في غرفة مظلمة،مع قطرة واحدة من ماء الكادي لإضافة رائحة منعشة.

وفيما يخص الماء المنعش في القارورة، والذي يتم تقديمه بشكل اختياري مع المنتج فلم يكن كما أخبرهم البائع، بأنه مصفى من تجمع برك المياه بعد هطول الأمطار الساقطة على مرتفعات الحبشة الشرقية، ومقروء عليه سورا كاملة من القرآن تحت إشرافه شخصياً. إذ لم يكن غير ماء عادي تم شفط قسم منه من خزان المنزل،والباقي من أماكن الوضوء في المسجد حين انقطعت مياه البيت. مع إضافة نصف ملعقة من الحلبة اليمنية المطحونة، و نقاط من زيت الكزبرة، ورشة من ملح الليمون، لجعل المذاق حامضا ولاذعاً يشبه دواء الصيدليات.

كل المكونات هذه لم تكن تساوي أربعة قروش، في حين أن المدفوع فيها كان من كثرته يقبل القسمة على اثنين.

أما الحقيقة التي لا تعلمها أكثر الزبونات تحمسا لمعاشرة طويلة رعناء،فهي أن مصدر الإشاعة تلك لم يكن سوى مريم ذاتها التي تشاجرت مع البائع!، وكانا قد اتفقا بطريقة لا يمكن وصفها سوى بأنها ماكرة!، على أن تقوم مريم بنشر إشاعة الوصفة السحرية بين النسوة مقابل مبلغ معلوم عن كل عملية بيع ، ثم تقوم الأخيرة بوقف العملية فيما يشبه الاحتجاج المصطنع، بغية إيقاف البيع المتفاقم،حتى لا يتم اكتشاف الخدعة من قبل النساء أنفسهن..

وكنوع من عزاء الذات للفلوس التي تم صرفها هباء منثورا، قالت خديجة بنت سعد أنها لن تدفع أي مبلغ متبق في ذمتها، حتى ولو تحولت آلة زوجها إلى آلة حمار!.. وأنها في هذا العمر قد اكتفت تماماً من ترهات الجسد وحماقاته.

وفيما كانت بقية النساء تأمل من الإكسير العجيب أن يبعث الحياة في أزواجهن الموتى،كانت "حسنا" بائعة الحاجيات النسائية والمكسرات في "سوق الحريم"، تطلب في داخلها شيئاً مختلفا ابعد من ذلك.. أن ينبت الإكسير السحري لزوجها ذيل حصان بدلا من عرف الديك التي عانت منه طوال ثلاثين عاما!، وان يحول تعاستها إلى سعادة إذ حسب ما سمعت عن الإكسير العجيب أن له قدرات مماثلة لما طلبت.

لم تلبث أن تلاشت أحلام النساء في ليال أسطورية،أجادت مريم في الدعاية لها مؤكدة لهن أنها جربت وجربت!.. حتى إنها حلفت زوراً،أنها لم تتمكن من السير لخطوة واحدة في بعض الأيام التي تلت اللقاءات الليلة المتوثبة، بسبب فاعلية الدواء المزعوم .

وعادت نساء الحي لرعاية الأطفال والاكتفاء بما يقدمه الأزواج في الفراش، راضيات بما فسم لهن:" ماجا فيه بركة"، قالت ذلك خديجة في لحظة انسحاب للداخل،بعد أن جمعت كل أحلامها الجامحة في ليال بنفسجية لن تأتي أبدا،ورمت بها، هي وبقية النساء في واد سحيق.

فيما يخص الرجال الغافلين عن المؤامرة التي تحاك سرا، فلم تحرك "خلطة الطبيعة"أي ساكن لدى الأزواج في الحارة، والذين لا ينامون نوما جيداً بسبب مرور السيارات المستمرّ وصياح الأولاد المتصارعين، وحركة النساء الدائبة التي لا تتوف داخل مخادع النوم لإرضاع الصغار، أو لتبدبل ملابسهن لاستقبال الزيارات اللانهائية للجارات اللواتي يرسلن حافظات القهوة والشاي مع الفتيات، لحجز الأماكن قبل وصولهن للبيوت.

لكن بصيص أمل انطلق من العدم حين سُمع، في إحدى الليالي التي تلت انتشار صرعة المادة العجيبة بين سكان الحي، في بيت زوجين كهلين صوت زئير،أعقبه صرخة أنثوية طويلة تشبه مواء قطة مخدوشة،تلا ذلك صوت موسيقى ارتفع ثم خفت فجأة، اتضح فيما بعد أنه منبعث من راديو سيارة عابرة.

كانت الآذان مرهفة آنذاك لالتقاط أية إشارة تخص مادة السعادة الأبدية.

لم يشك اغلب السامعين أن الدواء فعل فعلته في جسد رجل ما، وان طريق سعادة الإناث بدأ يرتسم بوضوح معلنا قدوم مستقبل ذي ألوان وشكل مختلف. وابتهج كثير من الرجال والنساء معتبرين ذلك علامة نجاح لسائل يساوي وزنه ذهبا.

لكن خيبة ظنونهن جاءت سريعا،إذ إن ما توقعنه صوت لذّات مسائية لم يكن سوى عراك نشأ بين بنت الكهلة من زوج آخر مات منذ زمن، وزوجها الشاب، والذين ناما في بيت الأم تلك الليلة، وكان سبب العراك بالطبع هو السائل السحري ذاته!، لأن الأم أخبرت ابنتها عن قدراته، فطلبت الأخيرة من زوجها الشاب في لحظة دلال، مبلغا يفوق تصوراته لشراء المادة العجيبة، ما اعتبره الزوج انتقاصا من رجولته . ومحاولاً أن يثبت لها انه ليس بحاجة إلى أية سوائل منشطة،قام بممارسات ليست حميمة هي أقرب للعنف،متناسيا في فوضى الثورة لاستعادة كرامته المغدورة ان هذه الانثى المتكورة تحته على بطنها في وضع جنيني، هي بكل الاحوال زوجة مدفوعة التكاليف بالكامل وليست غنيمة حرب، مما تسبب في عراك قصير بالأيدي ومخدات النوم المتوفرة، لطمها خلاله على وجهها بيد متخشبة وقلب موجوع.

كاد الشجار أن يصل إلى الخارج،لكنه هدأ من تلقاء نفسه بعد سيل من اللعنات، صبها الزوج الشاب وفق ترتيب أبجدي مبتدءاً بـ "خلاصة الطبيعة"المزعوم، ثم على البائع وأمّه، وعلى كل من يبيع أو يشتري هذه الأكاذيب الفاجرة. وأردف كل ذلك بلعنة أخيرة لعناء،طالت الكهل النائم في فراشه،-دونما ذنب اقترفه!-وعلى الزوجة وأمها العجوز،التي ظهرت فجأة أمام الزوجين العاريين، مثل عفريت صغير انبعث من الأرض.

تسببت اللعنة الغاضبة التي دوت في أرجاء البيت، وفي بيوت مجاورة، في مغادرة الزوجين معا مطرودين في صباح اليوم التالي، عائدين لمنزلهم وحاملين معهم حقيبة كبيرة كانت مجهزة لقضاء أيام متعددة.

بعد أن هدأت آثار السوائل العجيبة بأسابيع، أحضر البائع من ضمن منتجاته عطورا فرنسية ساهمت روائحها النافذة في بعث شهوات كانت خامدة دهرا طويلا، وداعبت مشاعر العذراوات بخيالات لليال سيقضينها يوما ما في أحضان أزواج لم يأتوا بعد. وسهلت للشباب المسكونين بالعشق، الولوج لقلوب نساء كانت مغلقة.. فقط برشات قليلة من تشكيلة واسعة عرضها البائع..

أحضر معه مرة- في كراتين مرتبة، يشبه لونها لون التراب- ما أسماه "بالكعب العالي". أغلب النساء الذين اشترينه سقطن سقطات مريعة وهن خارجات من زيارة البيوت،أو في الشارع أمام المارة. وبعض حوادث السقوط حدثت أمام المستوصف الحكومي وهن خارجات بدواء لخفض الحرارة ومراهم لحساسية الجلد المتورم من لسعات البعوض. مما أدى إلى إعادتهن للمستوصف محمولات لتلقي العلاج من كدمات ورضوض في الأكتاف والقدمين.

أحدث ذلك بعض الغضب،واضطر البائع إلى إعادة المال كاملاً لصاحبات السقطات مع اعتذار شفهي بأنه أحضر النوع الذي يصلح للسير في الشوارع العادية وليس في الأزقة غير الممهدة.

المرأة الوحيدة التي ظلت تستعمله دون حوادث كانت معمرة في الحارة جاوزت المائة وعشرين عاما. حين وصلت الدفعة الأولى من الحذاء،أصرت أن تقوم بتجربته برغم النصائح والتحذيرات المقرونة بقائمة طويلة من ضحايا التسكع بذلك النوع من الأحذية.

استمرت العجوز تختال في القرية ذهابا وإيابا وسط ذهول فتيات ونساء امتلأن بالغيرة والاندهاش،إلى أن سقطت العجوز سقطتها الأخيرة التي أودت بحياتها أمام باب المنزل،فيما هي عائدة من زيارة عائلية .. وحين علم بائع الخردوات بما حصل اختفى عن الظهور لشهر كامل، ولم يعد إلى حارتنا إلا بعد أن نسي الجميع ما حدث، لكنه وكمبادرة إنسانية قام بإسقاط جميع الديون عن أهل العجوز، وأعلن- لترقد المعمرة الفاتنة بسلام في القبر-، هذا من جهة، وكنوع من إثبات حسن النية من جهة ثانية، مسامحتها في جميع المبالغ المتراكمة عليها،إضافة لكونها وسيلة للتخلص من عذاب الضمير الذي لازمه منذ سماعه للخبر .. لكنه عاد وندم على ترك فلوسه تذهب أدراج الرياح حين علم من أكثر من مصدر بأن وفاتها لم تكن بسبب الكعب العالي ذاته، وإنما بسبب ثعبان صغير مختبئ خلف عتبة الباب، داست عليه بطرف كعبها الحاد أثناء دخول المنزل، والتف على قدمها في الظلمة، منهياً حياتها الطويلة..

القسم الثالث

في طريقنا إلى الشمال، كان هواء البحر يأتي من الغرب حاملاً معه الإحساس بحياة أخرى جميلة،وكأنه يحمل أرواح أناس آخرين يحيون حياة ثانية .. ترى ماذا يفعل الناس الآن في جزيرة صقلية و مالطا؟. يحتسون الشاي الايطالي دون ريب، في مقاهي صفت كراسيها على الأرصفة، ويتبادلون الحديث عنا نحن كعالم آخر وراء البحر.. وربما سألوا مشيرين ناحيتنا .. ماذا يفعل البشر الذين في الجهة المقابلة؟!

قبل المغيب كنا نسير بمحاذاة أكواخ لبائعي الأسماك وصيد البحر، الذين أشعل بعضهم فوانيس ولمبات كهربائية معلقة تعمل بالمولدات من أجل خدمة الزبائن العابرين أثناء الليل. طلب مني عدد من أعضاء الوفد التوقف للتصوير و ربما الاستمتاع بوجبة من هناك ..

- أرجوك! توقف نريد أخذ بعض الصور.

قالت ذلك الفتاة جوليا وصديقها يوهان، في وقت واحد.

لم أعلم أن اخذ الصور سيمتد إلى جلسات لتناول العشاء وأحاديث ستبقى طويلا في ذاكرتي، مشكلة ما تبقى من روحي.. تبني أجزاء، وتهدم أجزاء أخرى لتعيد بناءها من جديد، راسمة على جدران الروح لوحة هنا أو هناك ..

انتبهت وأنا في الحافلة أجري اتصالا بالمدير في شركة النقل إلى صوت السيدة روبنسون وهي تشير إلى من بعيد لأنضم إليهم، على مائدة مكونة من كراسي بلاستيكية بيضاء، جمعها السيد روبنسون من أماكن متفرقة على الرمل،متخذاً لنا في احد أنحاء المكان طاولة صنع منها مجلسا، واتكأ هناك يدخن من غليونه اللامع على عادته، فيما يبدو، حين يجلس في مقاهي وحانات لندن، وزوايا شوارع أوكسفورد، وساحات دبلن.

كان الليل يرخي سدوله ،كما يقول الشاعر العربي، وقد بدأ الضوء اللطيف للغروب ينسحب إلى الغرب تاركاً على امتداد الأفق البعيد نصف دائرة برتقالية اللون، وكأنها كرة من ضوء أصفر غطست في الماء فأضاء من الأسفل، صانعاً

فوق البحر مساحة حمراء. وانتشر في الهواء فجأة وميض حزن لست اعرف مصدره. أيكون استجابة الكون لصرخات غرقى في زمن موغل؟، غرقوا ولم يعد يذكرهم احد. أجسادهم في اليم لكن ذكراهم ما تزال حية تهيم فوق البحر!.

أما أنا فأحمد ربي أن ذاكرتي قصيرة كأنها ذاكرة ذبابة!، ربما لم أتعلم بعد أن احزن، وربما ان ما يحزنني قد حدث في زمن لم أولد فيه بعد.

بدت بقعتنا على الرمل معتمة كأن منطادا كبيرا مرّ من فوقها وترك تحته بركة من الظلام.. كان السيد روبنسون قد تفاوض مع بائعي السمك بالإشارات وبأصابع اليد حول ما يجب دفعه مقابل ما اشتراه، ونجح في معرفة السعر معتمداً على سجيته النشطة التي بدأت أتعرف عليها في رحلتي هذه، وكتمت مفاجأتي حين صب السيد روبنسون للجميع كؤوسا من النبيذ والبراندي، كان يخفيها في حقيبة السيارة.. زجاجتان بلون مائي والأخرى بألوان مختلفة، ولا اعلم متى او كيف حصل عليها هذا العجوز الداهية. حين عرض علي كأسا من الشراب بكل عفوية لم أشعر باني أرتكب خطأ، فقبلتها بالطبع وأنا اضحك في سري على ابن العم الذي تمنيت ان يكون معنا، ليشاهد هذا الاحتفال ..

لست أدري كيف أحضرها روبنسون ولم يسألني هو كما توقعت الأسئلة الاعتيادية:" هل تسمح يا سيد حامد"؟-"هل هو مسموح به هنا"؟-"هل هذا نظامي؟"-"هل نحن في ورطة ؟!".. لم يسألني أياً من ذلك، واكتفيت بأن اعتبرني واحدا منهم، فقد كنت ارغب ان أكون كذلك تاركاً وراء ظهري جميع الأفكار التي تحمل رجلا في مثل عمر السيد روبنسون وثقافته أن يطلب إذناً لممارسة شيء يخصه لا يؤذي الآخرين، في صحراء ليس فيها سوى الرمال والبحر .. وعموما فكأس واحد لا يضر مع مجموعة رائعة مثل هذه..

رفع الجميع كؤوسا حقيقية هذه المرة وتلاقت بصوت زجاجي أمام عيني وقالوا بصوت واحد: "نخب راضية محمدية".!

تسامرنا في هذه البقعة المنعزلة.. اجتمعت هنا رائحة البحر والخمر وأصوات النساء ووجوههن.. كل ذلك يفعل في الأرواح الكثير بلا شك ..

تلونت الدنيا في عيني واستحالت السيدة نادين أمامي فتاة عذراء ناحلة، وتراءت لي وهي في عنفوان شبابها، صهباء تلبس التنانير ذاهبة وآيبة من مدرستها، تاركة جديلتيها لعبث الريح الإيرلندية غير المجاملة. وربما كان لها حبيب أيام صباها نامت في أحضانه وتبادلا حبا وعشقا، وربما سافرا يوما في إجازة مثل هذه الى مدن انجليزية كبيرة قبل ان تتعرف على السيد الذي أمامي، ومارسا طقوس عشق

ما تزال حية في عمق روحها .. وأبصرت ساقيها في عهد الصبا فكأنهما منحوتتان رخاميتان تشعان بياضاً حتى لتوشكان أن تضيئا في عتمة ليل المدن الجنوبية الكئيبة .. فكيف عثر روبنسون على فريسة كهذه؟!

وهل لي يوما ان امتشق فرسا بهذا الجمال أم انه قد حكم علي ان أرى وأقرأ وأشاهد أنواع الجمال في الغرب والشرق دون أن ألمسه؟. وعادت أمامي شفتاها فتكورت كما كانتا قبل ثلاثين عاماً او يزيد .. فكأنهما وردة أقحوان نضجت لتوها، بل ها هي ذي! إنها الآن تتفتح في حقل من الأريج الأبيض! ..

وتوالت علي صور ومشاعر جميلة آخذة بي من الارض الى الأفق .. ليس النبيذ وحده هو السبب في كل ذلك، ولكنه ربما هواء بحري قادم من أعماق المحيطات ..

رأيت أعضاء فريقي الصغير بشكل آخر .. رأيت أرواحهم! .. الحزين، والمرتاب، والسعيد والقلق .. رأيت بشرا مثلنا لا أكثر، وبلا أقنعة ..

يلبس البشر أقنعتهم ليخفوا قلقهم . حين يخافون تكفهر وجوههم وتتصلب عضلاتهم متحفزين للدفاع عن ذواتهم تماما كما الحيوان في البرية او كما الإنسان الأول إنسان الكهوف .. حين يشعرون بالحب تبدو لهم الحياة مكانا مسليا، وحين يكرهون يبحثون عن وسيلة لإلحاق الضرر بأي شكل ...

"البشر ليسوا سوى أعواد الناي يعبر من خلالهم الحب والكراهية:! هكذا قرأت في كتاب لبعض حكماء الصين ..

بعد أن قبلنا دعوة السيد روبنسون وزوجته على العشاء المكون من الأسماك والخبز وبعض الخضار والفواكه، توزع الجميع متجهين للبحر، فيما بقيت مع السيد روبنسون جالسين على المقاعد. من بعيد سمعنا ضحكات السيدة نادين وبقية الرفاق، وأحاديث بلهجات مختلفة وهم مجتمعين يداعب البحر أقدامهم ..

كل شيء بدا صغيرا، حافلتنا الزرقاء بلون السماء بدت كنقطة سوداء في هذا العراء الصامت، فصنعت مزيجا بين الإسفلت الأسود والماء الساكن الأزرق ولون الشفق الأحمر وسواد الليل القادم .. وهبت نسمات ندية حملت معها رائحة البحر والموج وأصوات نوارس عائدة للعشّ قبل حلول الظلام.

زاد ذلك من جموح الرفاق مذكرا إياهم بسهول النمسا، وبراري إيرلندا وأنهارها وريف انجلترا العظيم. فارتفعت أصواتهم يغنون، ومع كل ضحكة أو غناء كانوا يرفعون أيديهم مطالبيننا بالانضمام إليهم. كنا نشير إليهم بان يواصلوا استمتاعهم، وبأننا سنلحق بهم قريبا ..

وضع روبنسون قبعته التي بلون الحصى على الطاولة، وخاطبني كأني صديق قديم وهو ينظر بعيدا إلى الرفاق والبحر:

- لقد عشنا زمنا صعبا أنا ونادين ولم أتوقع أنها ستشفى من ذلك أبداً.

استفهمت منه بنظرة هادئة وحركت راسي أطلب المزيد، فقال متحدثا مباشرة كأنه ينتظر فرصة للكلام في غياب سيدة حياته وحزنه..

- قد تبدو للجميع رحلتنا هذه رحلة عمل بحثا عن الآثار لكنها ليست كذلك!.

خشيت أن يكونا عضوين في مخابرات ما لكنه قال بلطف:

- أبحث عن شيء يشفي هذه المرأة من حزنها، وأشار ناحية الرفاق الضاحكين في سمرهم عند البحر ..

وأكمل، وقد غابت ملامح وجهه خلف ضباب من السجائر وظلام الليل:

- أحببتها وهي تلميذه في جامعتي تدرس الفنون، وتزوجنا بسرعة كأننا نخشى ان يفوتنا قطار ما. كانت شغوفة بالفن وكنت أحب مجالي في بعثرة أضرحة الموتى!.

تخليت فيما بعد عن عملي في الجامعة واستجبت لحبي لتربية الخيول فأنشأت مع نادين في جنوب الريف الإيرلندي وقريبا من البحر مزرعة لتربية الأحصنة الانجليزية، ثم الوعول الاسكتلندية لاحقاً، وكان لدينا الأفضل منها دوماً.

حرصنا أن نجلب للمزرعة أفضل سلالات الوعول والخيول من نواحي بريطانيا كلها. وبقينا في اسكتلندا شهرين كاملين نتفاوض مع البائعين بشان نوعيات من وعول المرتفعات..

أغرمت نادين بالوعول بينما عشقت الأحصنة .. على مدى سنتين كبرت مزرعتنا فاضطررت الى ترك العمل بشكل نهائي في الجامعة كأستاذ للتاريخ القديم، وتفرغت مع نادين للعناية بالمزرعة، إضافة إلى اقتناء اللوحات والمنحوتات وزيارة المعارض بحكم خبراتي السابقة. كنا نتوسع بمساعدة عدد من الأصدقاء وأصبح لدينا عدد من خيول السباق للمشاركة في مناسبات محلية قمنا ببيع بعض منها لتوسيع المزرعة ..

نمت ثروتنا سريعا وأصبح لدينا اكبر مزرعة في الريف، يزورها كبار المهتمين من إنحاء بريطانيا وأروبا ..

حاولنا في بدايات الزواج إنجاب الأطفال لكن الأمر لم ينجح بسبب نادين وكانت تعاني من ذلك في صمت وترقب .. زرنا العديد من الأطباء وأكدوا انه لاجدوى من العلاج ، فتوقفنا بعد مدة من الزمن ان المحاولة.

خصصت نادين جزءا من المزرعة لرعاية الأزهار، وزراعة أنواع معينة من الأشجار استوردناها من أماكن بعيدة .. على نحو خاص كانت تزرع أزهار الكامليا والبنفسج ذات العنق المتدلي، وزهر الزنبق الملتهب، وأزهار اللوتس البري وأقحوانيات البحر المتوسط .. بالإضافة إلى أشجار النيم والعطريات وأشجارا ذات أوراق مقدسة تزرع عادة في جبال نيبال ..

كان هواء البحر يجلب المزيد من الانتعاش فتورق أشجار المزرعة وإزهارها قبل الأوان، وتبدو قطرات الندى في صباحات الصيف على الأشجار وكأنها غطست لبعض الوقت في الماء. وفي الشتاء تتغطى الأوراق والأزهار بالثلج كأنها قطع بيضاء من القطن. كنا نتجول على أقدامنا او على الخيول وكأننا في عالم سحري، وكان الأصدقاء يزوروننا في أغلب ليالي شهري فبراير وأكتوبر في الشتاء وأشهر إبريل ومايو في الربيع لنقضي ساعات مليئة بالحكايات والأساطير وأشعار الحب..

كانت تلك أزمنة مترعة بهواء الليل ورائحة الأزهار والأشجار الاستوائية .. وبأصوات الجياد في الاصطبل، وصوت احتكاك قرون الوعول في مواسم التزاوج، ورائحة الورود والزهر التي تملأ المكان عبيراً.

بعد أربع سنوات من العمل حلت بالمنطقة التي تقع بها المزرعة عاصفة قاسية، قادمة من بحر الشمال في ليلة من ليالي الشتاء القارس .. عصفت الريح الباردة بكل شيء حولنا ونفق أغلب الحيوانات، وتحطمت أحواض الزرع، واقتلعت العاصفة الأزهار وأشجار الليمون والبرغموت التي كانت تعدها نادين لتصنع منها العطور في يوم ما ..

قمنا بإنقاذ الجياد المتبقية بمساعدة متطوعين وأرسلناها لمزارع بعيدة يملكها بعض الأصدقاء. أما الوعول فلم يتبق منها سوى أنثى واحدة ظلت تتجول بعد انحسار العاصفة، غارقة في الوحل حتى ركبتيها في حطام المزرعة تبحث عن صغارها الذين دفنتهم الرياح العاتية في الطين .. بقيت نادين تراقبها لأيام وهي مفطورة القلب.

كانت نادين تقف في الصباحات التالية للعاصفة قبالة حظيرة الوعول المحطمة والخالية من كل شيء، وظلت كذلك صامتة لعدة أيام، لا تفعل سوى الاستيقاظ بصمت في الصباح لتراقب أنثى الوعل الوحيدة وهي تتجول في الحطام، بين أكوام الأشجار المقتلعة من الأرض وبقايا الأسيجة الخشبية المتكسرة ..

تصحو لتقف هناك وفي يدها زهرة كامليا منحنية وقد غاصت أقدامها في حوض أوركيداتها الأثيرة بينما تناثرت من حولها بتلات وأوراق لزهور حمراء وصفراء وبيضاء بعضها حديث التفتح، وقد غدت حقول الأزهار مثل تربة تم حرثها للتو لتزرع مجدداً، بعد أن كانت مليئة بشتى أنواع الزهور والورود التي زرعتها بنفسها..

حين سمعتها مرة تخاطب أنثى الوعل الناجية وهي تحتضنها: "سيأتون قريباً لاصطحابك"!، شعرت بالذعر وقمت بأخذها بعيدا عن المزرعة الى المنزل في الجهة المقابلة، آملا ان اخفف من حزنها.. كنت أحاول ان افعل ما بوسعي لتتجاوز الأزمة التي عصفت بآمالنا جميعا.

كنت قلقا عليها، وحين انظر في عينيها لا ارى سوى آثار الحزن والصمت وخيبة الأمل .. لم تلبث الوعلة المكلومة طويلا حتى ألقت بنفسها في البحر أمام عيني نادين، التي طلت تراقبها دون ان تفعل شيئا لإنقاذها.

من بعيد لوحت لنا السيدة نادين بيدها وهي تشير إلى كشك يبيع الشاي، رافعة بيدها الأخرى كأس شاي من الورق وكأنها تنبهنا إلى توفر ذلك ،فسألها روبنسون من مكانه:

- هل هو شاي انجليزي؟!.

ابتسمت نادين برغم الظلام الحائل بيننا، لكني عرفت أن رجلها يحمل روحاً مرحة لم يعبر عنها حتى الآن.

تركْته وعدت بأسين من الشاي المضاف إليه نعناع حسب طلبه، وطلبت منه أن يكمل حديثه، فقال بعد أن تذوق القليل من الشاي الذي أحضرته:

- أصيبت بعدها بحالة من الإعياء والمرض كادت ان تفقدها حياتها. كنت مذهولا وحائرا،لكني بقيت معها في المنزل عدة أشهر حتى تماثلت للشفاء. أخبرتني بعد ذلك أنها بخير وأنه يمكنني أن أعود لعملي كأستاذ في أي مكان أن شئت، وعادت لممارسة حياتها خلال النهار، بينما تبقى أثناء الليل صامتة تحدق في صور حيوانات المزرعة،التي كانت معلقة على جدران الغرفة. وفي تلك الفترة حدث شيء غير من حياتنا ، فقد رأيت رأيت حلماً!.

تطلعت إليه باهتمام فأكمل:

- طلب مني صديق لي أن أقوم بمساعدته في الإشراف، نيابة عنه بسبب ظروفه الصحية على فريق آثار ينوي السفر للعراق. طلبت من نادين ان ترافقني لكنها فضلت البقاء في المنزل ..

في أثناء انشغال روبنسون بإشعال غليونه مرة أخرى كان سمعي يلتقط أصوات الأصدقاء التي كانت تصلنا من بعيد وهم يلعبون بالماء، وتناهى إلى سمعي ما اعتقدته -بين مصدق ومكذب- جزءا من مسرحية "فاوست" التي قرأتها في أوائل عهدي بالقراءة، وأرهفت سمعي أكثر فإذا هو الفتى يوهان يقدم للأصدقاء مسرحية في الهواء الطلق:

- "انج بنفسك يا إنسان!".

ابتسم السيد روبنسون، وعاد صوت الفتى المسرحي من جديد :

- " أيها الشقي! .. الزواج رباط مقدس.. لن أقدم إليك سوى عشيقات" !

تطلع روبنسون إلى خيالات الرفاق التي تتحرك في الظلام من بعيد وسألني من خلف دخان غليونه إن كنت أدرك الخط الفاصل بين الحقيقة والوهم؟. شعرت بأني محاصر.. البحر من ورائي والأسئلة المبهمة من أمامي .. وتطلعت بعينين متوسلتين إلى الأعلى حيث الأفق البعيد، فرأيت قمرا يولد صغيرا ورأيت نجوم الدب القطبي مكتملة الحضور تلمع مثل ألماسات صغيره وامضة ونظيفة، فأدركت أني لم أعرف الحقيقة بعد، لكنني قريب جدا من ذاك .. قلت:

- أخبرني أنت يا سيد روبنسون..

فقال وهو يراقب البحر ..

- حسنا كنت محتاجاً أكثر منها للسفر ورؤية العالم. أردت أن أعود للواقع من جديد فسافرت مع البعثة، ووعدتها ان أعود بأسرع ما يمكنني ..

وفي أثناء وجودنا في أحد مواقع الآثار بمدينة بابل القديمة، بقينا نعمل إلى فترة متأخرة من المساء، وكانت طريق العودة إلى المدينة طويلة ووعرة، ففضلنا المبيت في الموقع لاستكمال أعمال التنقيب صباحا .. قام مرافقو البعثة بإعداد مخيم صغير تم تجهيزه مسبقا، وبسبب الإرهاق فقد نام أفراد البعثة بسرعة ..

كل ما أتذكره عن تلك الرحلة أن الجميع قد حلم تلك الليلة بحلم واحد ..!

كنا ثمانية، أنا، وحفاران عراقيان، ومنقب نرويجي، ومرممة آثار انجليزية شاركت في ترميم بقايا المسارح الرومانية في الشمال الليبي، ومتدرب في جداريات العصور القديمة من جامعة كيبتاون الأهلية يجيد قراءة النقوش بمدينتي نينوى والنمرود ،إضافة إلى مساعدي في إدارة البعثة الألماني ذو الشعر الأحمر.

شارك معنا نحات ورسام من بودابست، عمل في المجر والتشيك وتخصص في منحوتات السيدة العذراء في أكبر الكاتدرائيات حول أوربا، ثم عاد واعتنق الاتجاه الطوباوي في الفن وأصبح يرسم النساء كما خلقهن الله دون قطعة من الملابس!، زاعما انه يرسم أمنا حواء قبل يغويها الشيطان!. كانت منحوتاته جميلة تحمل روح منهجه الفني، وفي وقت سابق سألني عن اهتماماتي في الفنون فقلت له انني مهتم بنتاج عصر الباروك بشكل عام وبما قدمه برنيني على نحو خاص، بالإضافة الى جميع أعمال الرسام بول سيزان وبالتحديد سلسلة لوحات لاعبو الورق، وأفضيت له بسري الصغير حول امتلاكي لنسختين من لوحة المستحمات، ولوحة الولد ذو الشارة الحمراء، فأبدى اهتماما بما قلته، لكن اهتمامه خبا سريعا موكدا أنه لا يميل كثيراً الى ما يرسمه الفرنسيون، ثم حدثني كثيرا عن فن الكنائس في شرق أوروبا حيث يكمن عشقه هناك... وحين استيقظ من الحلم الجماعي وتطابقت تفاصيله مع تفاصيل أغلب الفريق قام على الفور وقال:

- هذه إشارة إذن من السيد المسيح كنت انتظرها! .

لا نعلم ماذا كان يقصد لأنه حمل حقيبته وغادر على الفور سيرا على الأقدام إلى أقرب مدينة، ثم إلى بغداد، وسافر إلى براغ على أول طائرة. تخلى فيما بعد عن رسم الأجزاء السفلية من المرأة إلى الأبد، واكتفى بصنع تماثيل نصفية تعبر عن الجزء العلوي فقط من النساء والرجال، وسمعته يقول في مقابلة له شاهدتها بعد ذلك في إحدى قنوات التلفاز أن صدر المرأة وعنقها وشفتيها تقدمان للبشرية أكثر مما تقدمه بقية الأجزاء!، وحين سأله مقدم البرنامج عن رأيه في انتشار لوحات فنية ترسم جسد المرأة بشكل مجرد، أجاب:

- " أن السيد المسيح المقدس لن يكون سعيدا بذلك!".

عاد صوت الفتى يوهان ليصل إلينا من بعيد، حزينا، مستنجداً، يخاطب المجهول، فيما يبدو أنه الفصل الأخير من المسرحية:

- "ليتني تحولت إلى قطرة في بحر تتلاطم أمواجه!، أغرق في الموج ،فلا أعود للظهور أبداّ.."

تلاشى صوت الفتى الألماني، وغاب في موج البحر الهادئ فسألت السيد روبنسون:

- أي نوع من الأحلام رأيتها في بابل؟

وكأنه يتذكر حدثا واضحا لديه قال:

- أبصرت حلما فيما يشبه الحالة التي بين النوم واليقظة، وحين صحى أفراد البعثة اكتشفنا أننا جميعا قد عشنا الحلم ذاته .. شعرنا بالذهول، وحاول البعض العودة تاركين إكمال المهمة اعتقادا منهم أنهم وقعوا تحت سيطرة أرواح شريرة او قوى خفية تتلاعب بهم .. وما زاد الأمر تعقيدا أن أحلامنا متطابقة تماما، فيما عدا تفاصيل صغيرة لم يكن بعضنا متأكدا أنه رآها بشكل واضح.. مثل تلك التي تتعلق بالممارسات الجماعية الهوجاء، التي تطورت على سرير ابنة الملك -التي أقيم لها احتفال بعيد ميلادها العشرين- إلى احتفال جماعي، وتورط في الممارسات المشينة تلك أشخاص عليهم شارات الفروسية، أغلبهم كانوا قوادا في الجيش او ما شابه. وكذلك كانت الاختلافات في التفاصيل التي تتعلق بسقوط كائن بحجم سيارة على مقر

الحفل البابلي، فالبعض قال انه نسر والآخرون رأوه فرسا ذي أجنحة.. وماعدا ذلك فالحلم متطابق وكأنه نسخة تم توزيعها على النيام جميعا في الوقت ذاته.

بدأ الحلم، كما رواه أفراد البعثة الجالسون في الخيمة واحدا، واحداً، باحتفال كبير لابنة أحد ملوك بابل بمناسبة عيد ميلادها تخلله صخب كثير .. في البدء تقدم موكب صغير يضم فرسانا يعتلون صهوات جياد بيضاء، ويحملون رقعة كبيرة سوداء اللون تشبه علماً عليه صورة رأس أسد، معلقة فوق سارية من الحديد المذهب، وكأنهم قدموا منتصرين من معركة في مكان بعيد.. وبدا لنا أنهم يعيدون تمثيل انتصار الملك في معركة خاضها في زمن متقدم، لأن بعضهم كان يحمل فوق الدروع سائلا بلون الدم ..

ثم خفتت الأنوار وتقدم من طرف الصحراء البعيدة جمع من الأسرى والعبيد، بينهم رجال ونساء وأطفال ومعهم ماشيتهم، بغال وحمير وغنم، تمشي عن يمينهم وشمالهم في موكب حزين. تقدم فارس من موكب الملك وقال مخاطبا ملكه الذي ظهر فوق كرسي عال من الذهب يحمله أربعون من أقوى وأجمل فتيان المملكة، لابسين ثيابا بيضاء مطرزة بالحلي الصفراء ويضعون شارات الحرس فوق صدورهم:

- "يا سيد الأنهار والصحاري ومعمر بابل وأور، وقاهر ملوك آشور.. يا من يدين له ربان السفينة في البحر وعامل المحراث بين جبال الصنوبر في لبنان!.. ها إنه قد وصل سبيكم العظيم من أبناء الكنعانيين.. جاءوا من السامرة ، حفاة يمشون إلى ملكك الأبدي.

كانت وجوه الأسرى المسبيين مغبرة،حزينة، نحيلة، بفعل السير تحت سياط الغزاة، في جوف الصحراء القاحلة.

بعد خطبة الفارس صفق الملك بيده ثم طلب من جواري القصر أن يرقصن، وأشار بيده لفرقة الموسيقى فعزفت لحنا وطنيا.. رقصت جارية، وتقدم وفد من السبي الكبير يحملون قراطيس قدموها للملك محنيي الرؤوس قائلين له:

- ها نحن ذا نضع بين يديك سفر اللاويين، فيه روح الأنبياء وحكمتهم. فنظر الملك في بضع صفحات ثم وضع القراطيس في يد كاهن على يمينه وأشار بيده فانطلق سهم اخترق صدر أكبر الوفد سناً فركع على ركبتيه قبل ان ينكب على وجهه عند قدمي الملك. صاح صوت امرأة من الأسرى:

- لا تقتلوا كاتب العهد القديم، سيصيبكم إذن الطوفان إن فعلتم! .

وحين تعالى العويل والبكاء من داخل الأسرى، نزل الملك من عرشه فإذا هو برأس رجل، وجناحي نسر، وقدمي حصان.. وطار فوق الجمع وهم يحيونه ثم نزل قريبا من الفرسان. تتالت بعد ذلك الاحتفالات ورقصت ابنة الملك ووصيفاتها من الأميرات، في جناح خاص يحيط بهم قواد الجيش، و أبناء كبار رجالات الحاشية في القصر.

نظر إلي روبنسون، ليتبين مدى تصديقي لما قاله ثم أضاف:

لكنني رأيت شيئا مختلفا في حلمي،أخفيته عن الجميع ولم أخبر به أحدا سواك يا سيد حامد. فبعد أن انتصف الاحتفال وبينما كنت أتأمل جلالة الملك بشغف، وهو يتابع بإعجاب طابوراً من العربات العسكرية التي تجرها الخيول، ويقتعد عليها قادة حروب سابقة بعضهم قد هرم من كثرة النزالات والانتصارات التي لا تشوبها هزيمة. بعضهم يرفع رمحا لتحية ملكه، وبعضهم يرفع درعا مضروب الجوانب كدليل على معارك خاضها في أزمنة بعيدة. أغلبهم كان هرما يغوص في دروع منسوجة بالذهب المتموج، وبعضهم ما زال في فتوته لم يتقاعد بعد .. في أثناء ذلك اقترب مني طفل بين الخامسة والسادسة من عمره يلبس نسجا من ملابس القطن عليها ماسات من الزمرد الأزرق والأخضر ويضع على جبينه سلسالا في وسطه ياقوتة حمراء لامعة، وسألني:

- من أنت؟!

تفكرت قليلا قبل أن أقرر بأن أجيبه إجابة تليق بمظهره الجميل:

- عالم نقوش جاء يزوركم من أوروبا!.

حين التفتّ لأجيبه كان الطفل قد اختفى ولم يعد له وجود.

فعدت لأفكر في سؤاله.. "بالفعل من أنت يا روبنسون"؟!

ثم قال وهو ينظر في الأفق كمن يكلم نفسه، وقد لفت عينيه سحابة من الحقيقة المجردة:

- رأيت الحلم بالفعل معهم، صحيح أن ثمة بعض الاختلافات التي تتعلق بالألوان التي كانت ترتديها الراقصات في ساحة الرقص، وبعدد القتلى تلك الليلة من العبيد المجاليد، لكن سؤال الطفل ظل يتردد في فؤادي حتى قبل أن استيقظ: " من أنت؟".

صحوت رجلا جديدا بمشاعر من ينجو من تحطهم طائرة، حتى إنني بقيت أحس بوخزة رمح الفارس البابلي المسن، في كتفي الأيمن لعدة أيام بعد الحلم. والتي أصابتني عن طريق الخطأ، في أثناء مرور كوكبة الفرسان المتقاعدين.

أضاف يقول :

- شعرت بأني شخص آخر متحرر من كل شي، من الحزن، ومن الخوف، والاحتياج .. ولم أعد بحاجة إلى شيء سوى البكاء بالقرب من أمي المتوفاة منذ خمسة وثلاثين عاما! . هل لأنها امرأة ام لأنها أمي؟. شعرت بالكثير من الحنين إليها تلك اللحظة، ثم تلاشى الحنين، وبقي وهج التحرر من حياتي السابقة، وقبل رحلتنا هذه للجزيرة العربية زرنا أماكن عدة، زرنا مصر وسوريا والهند وأثيوبيا وتخصصت أكثر في التاريخ الشرقي وبدأت بتكوين مجموعتي الفنية من المنحوتات وواصلت عملي في تجارة اللوحات الفنية النادرة.

أقبل باتجاهنا الأصدقاء من بعيد ضاحكين، بعد أمضوا وقتهم مع البحر وقد تبللت بعض ملابسهم بالماء، وقبل أن يصلوا قال لي السيد روبنسون:

- توجهت في نهاية ذلك اليوم إلى مدينة بغداد حيث يوجد هاتف دولي واتصلت بالمنزل، وحين سمعت صوتها تقول: مرحبا، بادرتها قائلا:

- نادين!. سنبيع المزرعة، ونطوف مرتحلين لرؤية العالم!.

القسم الرابع

في مجلس عمي استمعت للكثير من الحكايات .. بعضها يقترب من الحقيقة، والآخر لا يعدو كونه ضرباً من الكذب الذي يسلي الناس. بعضها شكل مني جزءا،والبعض الآخر مرّ كأنه فقاعة صابون..

أجمل شيء فيها أنها تتحدث عن الإنسان. ذلك الكائن الجميل، الذي يصل للقمر ويبحث عن مسكن آخر بين الكواكب ثم يعود للأرض فيقاتل آخاه الإنسان من اجل كسرة خبز!..

يقول قصائد تزرع في قلوب العذارى بساتين ذات بهجة في أولها.. وتشعل حرائق وحروبا لا تنتهي في آخرها.

هذا الإنسان كائن مدمر ملعون حين يتكبد عناء الخداع، ويتلبس بالشر .. لكنه يسبق ملائكة الرحمن بخطوات، حين يسير في طريق الخير ..

حضر عندنا مفرح في ليلة شاتيه وحضر نفر من أقارب عمي ومعارفه .. وكنت مضيفهم. ولعلمي بأن مفرح بن هود، رجل ذو تجربة واسعة، وشخصية صادقة، كنت حريصا على ألا يفوتني شيء مما يحكيه، ولم يطل بنا الوقت فقد طلب بعض الحاضرين من مفرح أن يحكي قصة صاحبه "عوض". القصة التي أحبها الناس هنا..

تدفقت من مفرح كلمات تشبه انسياب سفينة في حوض من المياه الصافية .. ظل يتكلم وأنا أصب الشاي والقهوة واشعر أني معهم في سفينتهم أو كأني في طوف أجدف نحو جزيرة خضراء بعيده .. ولم اصدق انه موجود بيننا وهو يذكر أهوال عاصفة هبت عليهم وهم في وسط البحر.

كانت رحلة لسفينة عسكرية يقودها ضابط بحري حديث التخرج قوي الشكيمة، قليل الخبرة بالبحر ، استمرت واحد وعشرين يوما نقلوا خلالها معدات و أجزاء من قطع بحرية لباكستان لإصلاحها، والعودة بها.

قال مفرح ،وكأنه يكمل حديثا معلوماً للجميع ..

بعد يوم عمل طويل أوينا إلى الفرش مطمئنين، ولم نلبث أن استيقظنا في منتصف الليل على صوت غناء وتواشيح تنتشر في البحر فتردد صداها موجات بعيدة، فتدافعنا متجهين الى مصدر الصوت الذي لم يكن سوى "عوض" الذي ألفيناه جالسا على سطح السفينة بجانب الحبال متربعا وكأنه في مجلس صلح..

التقينا عنده مذهولين فإذ به يغني بشجن، غير عابئ بحضورنا،حتى إن صوته لم يتغير حين تحلقنا حوله جالسين، متقين هواء تيار بحري يحمل نسمات باردة، في حين لم يكن عوض يلبس سوى فنيلة علاقية وسروال عسكري قصير، واضعاً منشفته الخضراء فوق كتفه، كعادته حين يعد الشاهي والقهوة صباحا، في معسكرنا على الأرض.

مرة ينشد شعرا من الصحراء، ومرة يلحن قصائد عرضة تهامية، وبعدها يغني موالا عراقيا حزينا -"عيرتني بالشيب وهو وقار"!-. كان صوته يسيل كمدا وهو يمد يده متوسلا، مستجيرا بجمهور غير مرئي في غمرة الليل والبحر : "ليتها آه!.. ليتها عيرت بما هو عار"!. ومستجمعا في غنائه دفقة شعور صادقة تأخذ بالألباب، حتى أننا كدنا معها أن ننسى هول مأساته التي تحن فيها.. إذ وجه حديثه للبدر المعلق فوق رؤوسنا، مثل لمبة في الظلام:" ... فالليالي تزينها الأقمار.."!.

لكنه بعدها مباشرة قدم دبكة شامية، أردفها بموشحات أندلسية محرفة الكلمات فقد تداخلت مع أغان وطنية بلهجات محلية.. واستمر عوض يهذي بأغنيات أخرى ذات الحان قديمة، مذكرا إيانا بها وكنا قد نسيناها منذ زمن الشباب المبكر..

كانت مفاجأتنا الأغرب انه غنى إحدى أغاني الأطفال من ضمن الفوازير الرمضانية، متضمنة سؤال الحلقة الذي أجاب عنه أصغرنا سنا على السفينة، إجابة خاطئة صححناها له، لأن إجابته كانت تخص "الفزورة" في حلقة اليوم الذي بعده ..

واصلنا الإنصات له، ثم أخذنا نتجاذب حديثنا المعتاد حوله، في خلال الفواصل التي تكون بين أغنية وأخرى، أو في فترات استراحته من الغناء، ولم يعد للنوم إلينا سبيل. مقتنعين تماما ان عاشقة من عالم الجن تسكنه. لأنه قبل أشهر سقط على وجهه أمامنا في الميدان أثناء حصة التدريب الصباحية، وحضر الضابط المسؤول

عنا ومعه رئيس الشعبة الدينية الذي قرأ على عوض آيات من القران الكريم لكنه ظل صامتا لبرهة من الوقت قبل أن يتغير صوته وينطق بلغة تشبه اللغة الهندية أو الفارسية إلى حد بعيد، ثم ألقى كلمات متفرقة بلغة أخرى مختلفة تبدو افريقية .. وحين طلب منه الشيخ ان يكلمه باللغة العربية، دارت عيناه -وهو منطرح على أرض الميدان -باتجاه الفضاء وقال بلهجة غاضبة:

- "انقلع يا بلحة!"، ذاكراً لحية الشيخ وجسده بسوء.. وبالفعل فقد كان رأس مدير الشعبة الدينية ممتدا للأعلى يشبه البلحة.. المهم أن السباب والتهديد طال بينهما ووصل لحد بعيد.. والتفت الشيخ إلى الجمع المتحلق حول عوض ليخبرنا-وهو غاضب ومتعرق الجبين- بأن جنية تسكنه اسمها "بخيته"!، وأنها تعشقه ولن تخرج حتى يموت،أو تموت هي ..

ساد بيننا جوٌ من الحزن وتمنينا لو أنه بخير ، فقد كان أبا لأطفال، وزوجا لامرأتين، لا تعلمان أن ثالثة ليست من البشر تشاركهما هذا الجسد الممدد تحت شمس الصباح.

بعد أن أفاق وعاد إلى طبيعته المرحة تلقيناه بالابتسامات -و"الحمدلله على السلامة"-، وكلمات تشجيع وتهنئة، وكأنه قادم من رحلة صيد.. وعاد يصنع الشاهي والقهوة، وربما الطعام كعادته دون طلب من أحد ،ويساعد الآخرين عن طيب خاطر. وأرسله الضابط -على سبيل الاختبار-خارج معسكرنا في مهمات تخص جنوداً آخرين ، رجع منها ظافرا منهياً مهمته .. رجع عوض كما كان، يضحك ويمزح مثلما عرفناه خلال سنوات..

حين كنا نلعب الورق كان عوض أكثرنا صراخا وضجيجاً رافضا أن يقوم غيره بمهمة بالتوزيع، مما جعل البعض يشكك في نزاهته، فكان يتقبل التعليقات بسرور ويعود للتوزيع من جديد:"علشان خاطركم"، زاعما أن التوزيع الجديد هذه المرة من اجل خاطر ابن فلان الذي سيتزوج في الإجازة الصيفية، أو من اجل خاطر زوجة فلان التي ستضع مولودا ذكرا خلال شهر أو أقل.. وهكذا يعيد تشكيل الورق، ويسجل النتائج في دفتر من ستين ورقة امتلأت صفحاته عن آخرها، في حين كان الجزء الأخير من الدفتر مخصصا لوجبات عشاء على شكل "حقوق" يتم تسجيلها بناء على أخطاء كلامية او تعبيرية،او سلوكيات غير ملائمة يقوم بها البعض في أثناء المجالسة، ويكون الاعتذار عنها بحق يقدمه المعتذر عبارة عن عزيمة لجميع الحضور .. وقد يطول أمد انجاز هذا الحق مما يعرضه للنسيان، لذا يتم توثيقه هنا في الدفتر كإثبات فقط. وما هو مدون يعتبر كوثيقة التزام للتاريخ لا أكثر .. حين زحفت أرقام التسجيل الصغيرة على هذا الجزء بدأت الاحتجاجات ،فشعر عوض فعلا، بخطر ضياع الحقوق، فعاد للصفحة الأولى من الدفتر يسجل بين السطور ثم على الغلاف ،وأحيانا يكتب النتائج بالمقلوب ليفرق بين الجديدة

منها والقديمة .. لكنه وفي لحظة حماس، سئم من لخبطة النتائج المقيدة فوق بعضها فقام بتسجيلها على راحة يده اليسرى بعد هزيمة متكررة لمتحدين قدماء، لم تتح له الوقت للبحث عن فراغات في الدفتر.

حين امتلأت راحة يده سجل النتائج على ساعده الأيسر، وهذا جعله -بعد أن غطت ألوان الحبر يده -محتاجاً لفتوى صريحة في مدى صحة صلاته المبنية على وضوء غير صحيح، إذ يلزمه إزالة المكتوب كله عن يده ،كما أفاده أحد المنهزمين في موقعة الورق الأخيرة، ..

والمهم انه وكخروج من خلاف المفتين الذي قمنا نحن بدورهم، وكاختصار لفاتورة الاتصالات التي كان ينوي القيام بها لأرقام مفتين ومنتسبين للعلم، يتم تداولها،يقومون بتلقي اتصالات الناس وإفتاءهم في الأمور كلها، بدءاً من أحب الأسماء لتسمية أولادهم، وانتهاء بالطريقة الصحيحة للقاء جسدي بين الزوجين تسوده المحبة والمتعة موصية الطرفين بالوضوء قبل اللقاء وأثناءه وبعده!، مروراً بكيفية التعامل السليم من قبل الزوجات المنتظرات، مع الأزواج الذي يصلون للمنزل متأخرين ليلا، ومتلبسين بحالة سكر ورائحة الخمر عالقة بأثوابهم .. وفي حالات متنوعة، يسمح -باختصار وعلى عجل- للمتصلين بسرد أحلامهم التي عادة يتم تفسيرها بحسب حالة المتصل، والتي يكون أغلبها حول زواج وطلاق، وأعداء متربصين يتم رؤيتهم في الحلم على شكل حيات وعقارب، وحشرات تخرج من شقوق المنزل، أو دم يسيل من عيون الأطفال وأنوفهم، وربما على شكل كلاب وقطط سوداء ترقد تحت الأسرة. وكل ذلك يتم تفسيره على أنه إصابات مخفيّة لكنها واضحة من أحد الأقربين بالعين ،علاجها ليس صعبا ويتكون عادة من شرب مياه الغسيل بعد الاجتماعات العائلية مباشرة. أو تفسر كسحر ملفوف ومربوط في أوراق صغيرة،ينطلق أصحاب الحلم فزعين للبحث عنها، في أرجاء البيوت: تحت قطع الأثاث الثقيلة، وفوق الدواليب، وخلف أجهزة التكييف المثبتة في الجدران،وبين ملابس الخادمات، وداخل السيفون في الحمام!..

كاختصار لكل ذلك قام عوض بتأجيل صلاة يومين كاملين، لحين انتهاء جميع المباريات واستخلاص النتيجة،على ان يقوم بعدها بمسح المكتوب على راحة يده وساعده الأيسر، وساقه اليمنى، إضافة لباطن قدمه اليسرى، ليتمكن من أداء الصلوات كاملة براحة بال، مقترنا بالعدالة في النتيجة دون غش،"الظلم ظلمات"! -كما كان يؤكد في كل مرة نتهمه بها ،ضاحكين، بأنه "أكبر غشاش في العالم كله"-!

قال الشيخ وقتها:

- "إذا صحا وزالت عنه "الملعونة"، فلا تخبروه بشيء"!..

وبالفعل عدنا لحياتنا، وعاد هو إلى مهماته وتفاصيل حياته. ولكننا كنا تلك المرة في عرض البحر، وليس معنا الشيخ الذي عالجه بالقراءة عليه حتى تكلمت من بداخله..

كنا نحبه ونخشى عليه أن تؤذيه، كما أخبرنا الشيخ - البلحة- كما أسميناه ..

استمرت بخيتة-عوض-، في الغناء الليلي، مشكلة مع صوت البحر وضربات الموج المهيبة ثنائيا جميلاً ..

فقد أطلقت بعد لحظات صمت لحناً جنائزيا متعدد الطبقات سألناها عن مصدره، فقالت إنه يخص عشيرة نصرانية من الجن يعيشون في سفن تتنقل في البحر الأسود، تتاجر بالنبيذ والرقيق الأبيض من بني جنسهم، بين أذربيجان وطاجكستان والملاوي، فسألها الضابط الشاب على سبيل التهكم، ان كان لدى الجن رقيق ابيض مثلنا؟!.

تجاهلت سؤاله عن قصد، واستمرت في غناء ومواويل قالت أنها اعتادت أن تقدمها هدية شخصية منها في إعراس الجن الشراكسة كصلة قربى، وفاء لزوجها الثالث، وقدوداً حلبية ذكرت-مزهوة-أنها طُلبت خصيصا لتقدمها في حفل زواج جمع بين أحد رؤساء الجن، وفتاة إنسية أحبها واختطفها من جبال تهامة. كما سمح لها بغنائها، في عرس ملك من ملوكهم على بنت عفريت من نواحي أنطاكيا حضره آلاف من شتى البقاع الشمالية والجنوبية، وصدحت الأغنيات فيه بألحان متفرقة، ومتواصلة استمرت أسبوعا كاملا، قدمت بخيتة كما تقول في الحفل ذاته، فاصلاً توديعياً ضمن كورال تم اختياره بعناية، ذلك حينما تأهب العريس لأخذ امرأته والغوص بها بعيداً، لأنه كان ينتوي، على سبيل التغيير، الانتقال، -بعد استئذانه لوالديه- من العيش فوق الأرض، إلى أعمق أعماق البحر.

وعزفت لنا، ليلتئذ، ألحانا بلغة معوجة ذكرت أنها تخص مواسم الختان عند قبائل لا يعرفون سوى الحرب، يعيشون في نواحي جبال مقدونيا الجنوبية. وختمت حفلتها بأغنية لفيروز، غنتها بصوت أجش قائلة إنها من تأليفها، فلم يتجرأ أي منا على الاعتراض.

بعد استراحة قصيرة تنفست خلالها بعمق، قالت موجهة حديثها إلينا ونظرها إلى البحر، كرد على السؤال:

- نعم! .. يوجد لدينا رقيق من كل الألوان والأجناس، ويمكنك الشراء والدفع نقدا إن أردت واحدة! . وأضافت وهي ترمق الضابط بنظرات هادئة تدل على الحكمة :

- عندنا سياسيون وتجارا وحرفيون وقتلة! .. و، ولدينا محققون وحكماء، وعسكريون و قطاع طرق، وكل شيء.. كل ما قد يخطر ببالك!..

لم نجرؤ على الاسترسال في مزيد من الأسئلة فأضافت من تلقاء نفسها بلهجة مليئة بالفرح والبهجة، كزوج يفاجئ زوجته بالعودة مبكرا من الدوام:

- وعندنا رياضيون! ورسامون ومسرحيون وشعراء.

سكتت بخيتة عند ذلك تلهث، منكسة الرأس للأسفل، فسألها "سعد بن غرم الله "ساخرا، و متحملا العواقب في شجاعة لحظية موقتة، -سؤاله الوحيد والطائش، الذي تبين لاحقا انه عين الصواب-:

- هل لديكم أيضا مسابقات لملكات الجمال؟!

انتظرت بخيتة مدة تكفي لشرب فنجان قهوة من الحجم العادي، قبل أن ترفع رأسها يبطئ مائلة الوجه تجاه البحر الساكن الا من تموجات خفيفة ، ثم أدارته ناحية السائل، وبدت عيناها-(عينا عوض نفسها)- صغيرتين من الغضب. ثم حولت وجهها مرة أخرى ناحية البحر بسرعة، وراحت تتابع موجة صغيرة تأتي وتذهب، يمكننا سماع صوت ارتطامها بجدار السفينة ..

صمتت لبرهة وتنفسها يعلو ويهبط في تحفز كأنها ستخوض حربا وشيكة، حتى ظننا أن السؤال يحمل في ذاته مصيبة قادمة بسبب ذكرى دامية مرت بها .. وبدأت نظراتنا تلوم صاحب السؤال الأرعن سعد بن غرم، الذي أثر فيه اللوم، فأخذ يزحف ناحيتي استعدادا لأي طارئ قد يحدث.. ولدهشة الجميع فقد عادت عينا بخيتة من نظرها للبحر، وتطلعت إلينا جميعاً مبتسمة في ودّ حقيقي، وكأنها طفلة تتلقى قطعة حلوى في احتفال مدرسي. ولم نشك في أنها خلال تلك المدة سافرت في رحلة ممتعة لأماكن بعيدة، زارتها لوحدها وعادت مبتهجة للجسد المنهك هنا.

أطلقت فجأة صرخة ألم طويلة كانتكاسة سريعة لحالة الودّ التي مرت آنفا بينا وبينها،واعتقدنا جميعا،آسفين،أنها تعاقب هذا الجسد المسكين الذي تسكنه، وأننا ربما نكون سبباً في مأساته المحتومة التي نشهدها الآن.

توالت مجدداً نظراتنا اللائمة لصاحب السؤال الأخرق. لكن تلك الصرخة المباغتة والمتألمة التي تشبه صوت ذكر قندس بريّ يتم افتراسه، -من تلك التي تتكاثر عادة بين الخريف والشتاء في مستنقعات بعيدة-، والتي أطلقتها بصوت عوض المسكون وتخللتها كلمات أعجمية، تصب كلها في خانة الحزن العميق، وربما الشتائم القادمة من عالم غيبي مخيف، لم تدم طويلاً، اذ أنهتها بخيتة بشكل متدرج ، ثم قالت، وسط ذهول الجميع وفرحتهم بخلاص الجسد المعذب: إن ما مضى كان موالا تغنيه الجنيات عادة في مناسبات العزاء في الجبال الشمالية من كردستان، وأنها تعلمته في واحدة من تلك المناسبات قبل مئة وواحد وثلاثين عاما!.

تبادلنا نظرات شك، ثم نسينا أهوال السؤال السابق، ورحنا نسألها عن عمرها آملين أن تدلي بالكثير عن حياتها الخاصة. فقالت منطلقة دون قيود وكأنها صديقة قديمة، وبصوت لم يعد يمت لصوت عوض بصلة :

-ابني البكر"إدريس" عمره أربعون ومئة سنة، ولم يتزوج سوى قبل ثلاثين سنة. وليته لم يفعل، اذ انه ما زال في ريعان شبابه .. وفيما كنا نعاني من ذهول صامت، قالت دون مقدمات، موجهة حديثها مباشرة لسعد بن غرم:

-لدينا مسابقات في الجمال لكل شيء .. نقيمها كل عام مرة او مرتين، بحسب الحالة القائمة من السلم أو الحرب. مسابقات للنساء، والأزهار، والحيوانات،والإبل، وكل شيء تقريبا..

أما مسابقات جمال الشابات فهي تقام كل عام في نفس الموعد، عند التقاء مصبات أكبر نهرين في جبال طوروس. ترتبها إحدى العشائر الوثنية هناك، ومن طبيعتهم أنهم يقاتلون عاماً ويتزاوجون فيما بينهم عاماً، مع الأخذ في الاعتبار حالة الرياح، فقد تتقدم او تتأخر المسابقة يومين أو ثلاثة، في انتظار هدوء الريح الغاضبة القادمة من البحر الهائج.

في حين تقام مسابقات الإبل،سنة في صحراء كردفان وفي السنة التالية في نواحي صحراء راجستان الهندية ..

لكن الأضخم بينها جميعا هي مسابقة أجمل اسماك البحار والأنهر.. فبينما تقام بقية المسابقات على الأرض او في أعالي الجبال، فإن الأخيرة هذه تقام داخل حطام أكبر السفن ضمن أسطول يضم اثنتي عشرة سفينة غارقة، قرب جزيرة مهجورة في بحر مرمرة،تمتد على خط واحد في المياه الصافية حتى ليشك الناظر إليها أنها غرقت، ويظنها مجرد مناورة لخداع العدو..

كانت المراكب تلك في العهود الرومانية القديمة، تنقل أحجار الفيروز، والياقوت الأحمر، والحرير القرمزي، والحرير المرقش،إضافة لجوزة الطيب، وزيوتا عطرية خاصة بملكات يونانيات من أولمبيا، تساعدهن في تفتيح بشرتهن وإكسابها لونا صافيا مثل لون زبدة البقر.

في إحدى تلك المناسبات السنوية استيقظ قائد السفينة اليوناني و الذي تعود أصوله إلى جرمانيا من جهة الأب، بينما تعود أصول أمه إلى قبائل غجرية تم استقدامهم مربوطين بسلاسل في مجموعات متشابهة من شمال أوراسيا. استيقظ الربان من رقدته الأبدية تحت حطام الأخشاب المكومة، وشارك في اختيار أجمل سمكة، ولم يمانع أي من الحضور مشاركة الربان البشري، باعتباره ينتمي حالياً لعالم الأموات، حتى إنهم سمحوا له بالاعتراض على ترشيح سمكة مندريل صفراء، شُوهدت في منافسات العام الذي قبله.. وكما هو، على عادته حين يكلم بحارته قبل مئات السنين، قال بلهجة آمرة، لكنها صادقة -بعد ان تناول رشفة من كأس خمر قدم للجميع بالتناوب-:

- مهلاً يا سادة..! ، أليس من الواجب أن نفسح المجال للسمكات الجدد وحسب؟!..

ومستنيرا بالمعرفة، التي استقاها من البحر والرياح الجليدية التي تهب آتية من الشمال، حاملة معها -إضافة للحكمة -، بذور مرض الكزاز والحمى الصفراء. قال القبطان :

- لكل عصر مخلوقاته..!

وبالفعل كانت الفائزة بلقب ذلك العام، سمكة "مولا مولا" حمراء تعيش قرب إحدى الجزر الخالدات في بحر أوقيانوس، قدمت خصيصا للمشاركة في تلك الاحتفالية،وغادرت متوجة كأجمل سمكة ومعها وصيفتين،إحداهما من البحر الإدرياتيكي،والأخرى وصلت من شاطئ مقفر يطل على بحر إيجة.. وبعد انتهاء مراسم تتويجها ملكة ذلك العام، تلاشى القبطان البشري مطمئناً،ومودعا الجميع بتلويحة من يده،استحال بعدها رماداً، عائدا من جديد إلى مكانه، تحت حطام سفينته الغارقة في الأعماق، بين شعب المرجان، والسراخس الخضراء، وأعشاب البحر ..

المهم أننا استمتعنا طيلة واحد وعشرين يوما-وهي مدة الرحلة- بصحبة بخيتة، وربما لم تعد نفرق بينها وبين صاحبنا، من كثرة ما حصل فيما بيننا وإياها من الود

والألفة، وكأنها عوض نفسه!، حتى ان المسؤول عن كشف الحضور ذات يوم، قيد اسم عوض في كشف الحضور باسم بخيتة على سبيل العادة.

توقفنا عن ربط عوض كالسابق،إلى سارية فوق ظهر السفينة، خوفا من أن تلقيه بخيتة في الماء، أولا لأننا استحلفناها بالله ثلاثا ألا تفعل، وحلفت! . -مع أننا لا نعرف ان كانت مسلمة او نصرانية او وثنيةً أو غير ذلك-. وثانيا، لان ثقة وافرة نشأت بيننا وبينها جعلتننا وإياها أصدقاء.

كانت فكرة اللجوء للحلف حسنة لضمان سلامة عوض ، وبدأت الفكرة بطلب متردد من أكثرنا خوفا على رفيقنا البائس،" احلفي"! قال سالم. وتوالت بعدها طلباتنا "احلفي يا بخيتة "!.. وبسرعة البرق انزلق صوتها الأنثوي الضاحك بما طلبناه، دون مراوغة توقعناها من جنية فوق ظهر سفينة تائهة في عرض البحر.

لم يعد إذن من خطر يذكر على حياة عوض في هدا المحيط الكبير الذي اعتبرنا فيه أنفسنا مسؤولين عن حياة رجل مسكين بعيد عن أقاربه وأسرته، وأخذنا في الاعتبار بعض الشكوك التي حامت بسبب طريقة بخيتة في الحلف، والتي نبهنا عليها سعد بن غرم،إذ إنها حلفت ألا تؤذيه وهي لا تكاد تمسك نفسها من الضحك بدلال وغنج!. لكننا أجمعنا في النهاية بأنها ليست نقطة جوهرية، لأن المهم هو نطقها بالحلف، وفيما لو كانت لا تؤمن بالله، فقد أخذنا احتياطاً بأن طالبناها بالقسم بابنها البكر نفسه!، وهذا كاف بالنسبة لنا نحن البشر المؤمنين بالله..

كعربون صداقة مقدم لها فقد أعفى قائد السفينة عوض من كافة مهامه الميدانية، واكتفى بأن يكون ضمن الحضور في وقتي التحضير اليومي، الساعة السادسة صباحا والسابعة مساء..

قال عم مفرح ..

في اليوم التالي،لم يكن عوض قد عاد بعد إلى طبيعته البشرية فتحمس بعضنا لمواصلة الحديث مع بخيتة، وقد وجدنا متعة فيما تقول وغرابة.

حين جلسنا إليها قبل مغيب شمس البحر، بادر واحد منا وطلب إليها أن تقول اسمها بصراحة .. "ما اسمك"؟! ، في محاولة لفتح حوار يشبه حوار الأمس، فنظرت إلى

السائل بضيق مكتوم، وكانت منزوية في طرف مظلم من سطح المركب، ثم أطلقت من عالم غيبي ضحكة عالية وقالت:

- "اسمي بخيته يا عمري"!.

ثم ضحكت أخرى بما يشبه صوت امرأة لعوب، تجادل زبونا في حي شعبي.. وتتالت أسألتنا بعد ذلك، حذرة في البداية ثم إذا بها اقرب إلى الأسئلة المعقولة فيما بعد. كان أكثرنا حماسا وأسئلة هو سالم بن جديلة .. وكان مع هذا،أكثرنا بعدا عن منطقة الحدث بحيث لو تغيرت الأوضاع إلى الأسوأ، يكون هو أسرعنا في الهرب. خاصة انه هو أول من طلب منها أن تحلف يوم أمس.

بعد سؤاله بخيته عن اسمها رمقته -بعيني عوض- بنظرة فاحصة وكأنها لم تعرفه يوما، ولم يلعبا سويا الورق أو يتبادلا الوقوف في الخفارة الليلية طيلة ثمانية عشر عاما..

كان الجو صافيا فتجاسرت أنا وطلبت إليها أن يرقص! - كاختبار لحسن نيتها:

- "نريد رقصة الجن يا بخيته"!.

فأجابت قبل أن أكمل طلبي:

- أبشر يا محمد بن زهيرة!.

ولم تكن زهيرة أمي لكنها صفة لجدي والد أمي. إذ يروي الأقدمون أنه حين خطب جدتي حمل فوق أذنه اليمنى شيئا من الريحان وفوق اليسرى زهرة شذاب صفراء مكتملة النمو لم يلاحظها مرافقوه من كبار العائلة إلا بعد جلس أهل المجلس ، اذ أنه بعد أن بدؤوا مراسم خطبة ابنهم أخرج جدي خلسة، الزهرة من قميصه وثبتها خلف أذنه .. واشتعل بين مرافقوه، والده وأعمامه، غضب مكبوت من ابنهم الذي تزين بزينة قبل أوانها، وكاد الغضب ان يعصف بالخطبة من أصلها، لكنهم تمالكوا أنفسهم وامضوا الأمر على خير . وبعد ان تمت الخطبة انسل هاربا في زحام الخارجين، و بحثوا عنه وهم غاضبين فلم يجدوه، وأخبرهم -طالبا رضاهم- عبر مراسيل حسني النية، فيما هو مختف في غار خارج القرية، أن الزهرة أهدتها له مخطوبته في لقاء سري تم بين الجبال، وأنها اشترطت للموافقة، على سبيل التحدي لرجولته،أن يلبس زهرة الشذاب التي أهدتها إليه، في مجلس يضم كبار أهله وأهلها.

أصبحت الزهرة الصفراء فيما بعد مثلا يتداوله الناس في القرية، وخاصة بائعوا الملابس والخناجر والجنبيات المذهبة في سوق السبت. بل وحتى بائعات وزبونات الحلي النسائية بما في ذلك خلاخل الأرجل الفضية في قرى متفرقة: "أحسن من لبس ابو زهيرة"!. كانت تقال بعد أن يلبس المشتري ما ينوي شراءه على سبيل التجربة. وفي بعض الأحيان يستخدمها الزوج حين يطول انتظاره لزوجته، وهي تتزين قبل الخروج لعزيمة بعيدة، فيدخل عليها مبدياً إعجابه، قائلا تلك العبارة، فيخرجان من الغرفة فوراً،يداً بيد!

ظلت الزهرة الصغيرة سببا في إنجاح الزيجة التي أنتجت بنين وبنات وأحفاد كثر، تجاوزت مساكنهم الجبال القريبة، اذ كلما نشب خلاف فتاك بين جدي-رحمه الله- وزوجته الجميلة، انسل بهدوء لمكان مجهول، وعاد صامتا وفي أذنه زهرة صفراء من أي نوع، فينتهي الخلاف بابتسامات حقيقية، وضحكات مغنجة،غالبا ما أوصلت الزوجين الشابين لمضاجعات طويلة، تمتد من أول الليل حتى ظهر اليوم التالي .. حتى ان أهل الحي اذا رأوه عائدا بزهرته الصفراء المكتملة النمو، تنحو جانبا عن طريقه مفسحين له الطريق وكأنه ذاهب للحرب.. ومرهفين آذانهم المتصنتة لأي صوت متعة زوجية قد يصدر من بيته تلك الليلة.

ماجعل مفرح بن هود يجمد مثل تمثال من الجص أمام بخيتة في تلك الليلة ليس معرفتها بلقب جده فقط وإنما مناداتها له باسم "محمد"!. اذ يستحيل ان يعلم سر ذلك الاسم جني او انسي، حيث ان محمد هو الاسم الذي ولد به أخوه التوأم الذي شاركه البطن نفسه طيلة أشهر الحمل الثمانية، وسمي الذي ولد ميتاً "مفرح" والذي عاش "محمد"، كنوع من الفأل الحسن. لكن والدتهما لم تلبث أن رأت في المنام ابنها المتوفى يكلمها وهو ممسك بحبله السري بيده، جالساً فوق صخرة مسطحة تقع على جبل منخفض لم تره في حياتها:

- يا بنت أبوزهيرة ! .. داوي جرحي أنتي وأخي "مفرح".

فقالت بجزع:

- من أنت ياولدي؟

قال الطفل :

- أنا ولدك محمد!

وفهمت الأم فور قيامها من الحلم أن الوليد المتوفى غير مرتاح في رقدته، فاستشار أهل البيت من يثقون به فأشار عليهم:

- بدلوا أسماء الأولاد، وتصدقوا بربع بقرة حتى لا يلحقكم فأل السوء!.

ولم يكن عندهم بقرة فتصدقوا بثورهم الوحيد كله، ذبحوه واطعموا فقراء لم يذوقوا اللحم تلك السنة والسنة التي قبلها .. وقال من قال أن رسالة الوليد في الرؤيا لم تكن تهدف لتغيير الأسماء وإنما كانت دعوة للأم للحاق بابنها في الجنة، وهذا ما كان. فما إن انتهى ذلك العام حتى ماتت الأم وهي تطحن الحب في وسط الدار. قامت فجأة من على المطحنة -وكأنها ذاهبة لفتح الباب-وزوجها وبعض أبناءها الكبار جالسين غير بعيد، وقالت بصوت واهن:

- عن إذنكم وسامحوني!.

ثم استلقت على فراشها وراحت في رقدتها الأبدية ..

ولم يكن يعرف كنية جده ولا قصة توأمه المتوفى أحد سوى عائلته القابعة بين جبال بعيدة، يحدها من كل الجهات جبال أخرى وسهول تمتد بامتداد الأفق ..

قال العم مفرح :

بعد أن طلبت من بخيتة الرقص، سألتنا أن نفك الحبال عنها والتي كانت بالفعل مفكوكة كنوع من التساهل معها منذ مدة. فقلنا لها انك حرة طليقة، فعادت وطلبت إبعاد الحبال وكأنها تذكرنا بفعلتنا الأولى بربط عوض قبل أيام.

وحين أبعدناها تماما عنه قام واقفا، وتراجع قليلا ثم انطلق إلى جدار السفينة وارتطم به بقوة أسقطته على الأرض، ثم قام ونظر للماء مدلياً رأسه من إحدى الفتحات على جانب السفينة، فلم نشك إنها ستلقي به إلى البحر، وقام بعضنا ليمسكه، وانصبت عليّ نظرات نارية لأني طلبت منها ان ترقص .. قبل ان نتمالك أنفسنا واقفين عاد عوض مسرعا إلى مكانه السابق بين الحبال ووقف كتمثال ثم أحنى رأسه للأسفل وحركه لليمين والشمال،وبدا كأنه يرمي شعرا وهمياً ويبعده عن عينيه في الهواء بحركات راقصة محترفة، وبعدها حرك رجله اليمنى

مرتعشة،ثم حرك قدمه ورجله اليسرى بالطريقة ذاتها ولكن إلى الأعلى ،مما استدعانا الى توسيع المساحة له ليأخذ راحته مطمئنين إلى ان رحلته الهاربة الى جدار المركب لم تكن سوى إحدى تجهيزات الرقص الغريبة. قفز بعد ذلك في هواء الليل، وارتفع بشكل لايمكن لبشر بلوغه مهما كانت رشاقته، واستمر راقصاً بحركات يرتعش معها من رأسه حتى أخمص قدميه.. إلى أن تدخل أحدنا:

- "ارحميه يا بخيته"!.

لكنه استمر راقصا حوالي نصف ساعة قبل أن يجلس في مكانه السابق ويمدّ إلينا يديه ملتحمتين كمن يطلب أن نقيده.

- "اربطوني"! . قال عوض ..

انتهت تلم الليلة بصمت ثقيل من جانبه، يئسنا معه ان يتفوه بكلمة.

حين رويت طرفاً من قصة عوض للسيد روبنسون فيما بعد أثناء الرحلة، سألني وهو يزيح شيئا علق بحذائه من الأسفل:

- هل غنت بخيته مقطوعة ما من الأوبرا لكاروسو؟!،أو عزفت لهم شيئا من رباعيات موزارت أو موسيقى بوتشيني؟ .. ظننت بادي الأمر أنه يهزأ مني ومن القصة كلها وشعرت بالضيق فعلا، لكني حين نظرت في عينيه علمت انه لا يفكر وهو وقومه الا بتلك الطريقة.. وانه لا يقصد سوى إن كاروسو، وموزارت، وبوتشيني، شخصيات عظيمة تستحق التواجد ضمن قائمة الفن لدى فناني الجن والإنس على حد سواء.

استأذن مفرح وهو يدير جسدا متهالكاً تأكّلته السنين وملح البحر، طالبا السماح له بالذهاب لقضاء الحاجة. قمت بتوجيه لجهة دورة المياه التي كان يعرفها .. وانشغلت بصب فناجين الشاهي والقهوة للحاضرين، الذين تبادلوا كلمات قليلة خوفا من أن يدخلوا في أحاديث مطولة اعتيادية تفسد عليهم قصة عوض ..

سرعان ما عاد محدثنا ودخل المجلس وهو يمسح يديه بمنشفة قدمتها إليه عند خروجه من بيت الخلاء، فقدمت إليه فنجان قهوة شرب منه مسنداً رأسه إلى الجدار خلفه، فبادره الجالسون أكمل يا أبو عون أكمل!، فأشعره ذلك بمزيد من أهمية ما يقوله،فرد عليهم بحماس، أنه لا يعلم أين وصلنا؟. تعالت جوقة أصوات بعضها قادم من آخر المجلس وتداخلت الكلمات: بخيته بخيته! ، فقاطعها كنوع من المفاجأة الحسنة للجميع وكأنه يتذكر للتو. قال:

- هبت علينا عاصفة في ليلة ليس فيها قمر، ورأيت البحر كما لا أعرفه خلال ثلاثين عاما، هادراً، متوحشا كأنه ابتلع اليابسة كلها. وأمسى البحارة ،حتى ذوي الخبرة منهم،يعلو وجوههم الخوف. كنا في منطقة معزولة في البحر واقرب ميناء كان في شاطئ عمان يبعد عنا حوالي مائتي ميل إلى الغرب. قائد السفينة حديث التخرج شجاع لكنه قليل الخبرة. انزوى في غرفة القيادة مرة يرسل إشارات نجدة للملاحة الدولية، ومرة يرسل برقيات للقيادة في الوطن يطلب فيها إرسال طائرات إنقاذ، وأحيانا يرسل رسائل للسفن القريبة تعلمهم مواقعنا طالباً النجدة بالرموز الدولية .. حتى انه طلب ان ننكس العلم كإشارة لوقوعنا في كارثة، وهذا ما رفضه اغلب البحارة، وفضلوا الموت على ان يرفع علم بلادهم مقلوباً..

كنا نكافح العاصفة العاتية بينما كان عوض معلقا بأعلى الصاري الكبير يصرخ في وجه البحر:

- أيها البحر الغادر!.. خذني إليك واترك قطعة روحي تعيش!.

ولا نعلم حتى اليوم كيف عرف في تلك اللحظة أن ابنته الصغيرة "زينب"، طريحة الفراش توشك على الموت بسبب الحمى، والتي لم تنفع معها أدوية المستشفى الحكومي الصغير، فأرسلوها للبيت يائسين أن تعيش يوما آخر.

كانت الطفلة تعاني سكرات الموت فجلست عندها أمها وخالاتها يبكون ويندبون، وكلما غفت تحسست أمها يديها خوفا من أن تكون قد غادرت دنياهم ..

في اللحظة التي كان أبوها فوق الصاري يخاطب أمواج البحر، غفت الطفلة طويلا وظنوا أنهم فقدوها فصاح من صاح، وانكبت أمها تبكي عند فراشها، وأخبرني - فيما بعد بسنوات- بعض من كنّ حاضرات من النسوة وقتها أن الطفلة أفاقت من رقدة طويلة كانت فيها حرارتها تلهب الفراش، وتكاد أن تدفئ الغرفة الصغيرة كلها ،ونادت:

- "أبي"! ..

فتحت عينيها المحمرتين عن آخرهما وكأن جسدها كتلة من اللهب ، وجالت ببصرها في سماء الغرفة لدقيقة، ثم ثبتت بصرها على أعمدة السقف الخشبية المنخفضة وقالت بصوت لا ينتمي لعالم البشر:

- "عوض الله! ، تمسك بالخشبة لا ياكلك السمك"!.

كان صوتها يشبه صوت فتى تعدى البلوغ بسنة واحدة! ، كما قالت عزة بنت فضيل." ما كان صوتها لا يشبه صوت الناس"، كما أكدت أختها من الرضاعة وافية جبلية بعد ذلك بأعوام وكانتا حاضرتين ليلتئذ..

بعد ذلك أطفأت البنت عينيها عائدة لرقدتها السابقة. تلفت من سمع صوتها ناظرين في امتداد بصرها فلم يرو شيئاً ، فاعتقدوا أنها إنما ترى ملكا بلا ريب من ملائكة الموت جاء لاستلام الأمانة، فتعالت أصوات بكاء ونشيج، وانهمرت دموع كانت حبيسة الصدور. وكانوا مشغولين بالنواح فلم يتبينوا على وجه الدقة مقالة البنت ، اذ كانوا في غمرة من الحزن واليأس والإحساس بالفقد، من ذلك النوع الذي لا يأتي فجأة ولكنه يقدم بمقدمات تترك أثرا أكثر إيلاما، فكأن الفاجعة لا تحدث مرة واحدة، وإنما تحصل مرات ومرات.

اختفى عوض وسط كتلة من الضباب الذي كان يغطي منتصف الصاري الرئيسي ويحجب عنا الأفق، وتركناه في لحظات العاصفة تلك. يصلنا صوته من أعلى السفينة، مرة ينشد أناشيد حزينة. ومرة يبكي وهو يناجي البحر غاضبا، ومردداً شتائم نسمع بعضها ويغيب عنا أكثرها. كانت أسماعنا قد تعطلت من هول الرياح وصفعات المياه على وجوهنا، ومن وسط الضباب كان يصلنا صوته صارخا في وجه الماء، تصلنا كلماته ولا ندري اين هو، طالبا من البحر الهائج ان يترك صغيرته تعيش ويأتي لمواجهته هو:

- اترك البنت!، وتعال قابل عوض يا "بركة الملح"!.

وأحيانا يصف البحر "بأبو الحيتان" ، متهما إياه بالنكوص والجبن عن مواجهته.

ولم نكن ندرك هل كان يمتدح البحر المتلاطم أم أنه يوجه السباب بطريقته، لكننا كنا منشغلين بمقاتلة الموج الهائج، محاولين إبقاء سفينتنا في وضع متوازن بنقل المؤن من جهة لأخرى، وجرف المياه التي غمرت السطح إلى خارجها. لم نعد

نفرق بين عوض وبخيته .. كنا في كرب . وانشغلنا عنه بتتبع المسار الصحيح في وسط الأمواج.. في لجة الأمواج والليل والرياح ..

تلك الليلة كتب قائد السفينة على عجل نداءات استغاثة لكل السفن التي في الأرض، شاملا برسائله السفن المعادية التي كانت على الطرف الآخر من البحر، وفي غمرة العجلة والخوف أخطأ منسق البرقيات في إعداد أحد الإشارات: وكتب: "إننا الآن نغرق في الجليد"! بدلا من كتابة "نحن تحت سيطرة العاصفة".

وعندما انتهت العاصفة واستقرت السفينة في البحر الأزرق اكتشفنا أن لا سفينة فوق اليابسة أو الماء اكتشفت نكبتنا البارحة لسبب بسيط هو ان جهاز البرقيات كان معطلا من الداخل.

ولم تنج من الرسائل سوى واحدة التقطها قارب لصيد الدلافين في المياه الاسترالية، وصلت بشفرة خاطئة مفادها:

- " نحن لا نغرق.. ولكننا نطلب شرابا لنحتفل!".

وفهم قبطان القارب أنها رسالة مازحة، الهدف منها تأكيد تجاوزنا لمحنة العاصفة التي كانت تجتاح المحيط كله..

قال مفرح ..

وأخبرتني بعض النساء اللاتي كن مع البنت تلك الليلة أن زينب قامت واستوت جالسة على الفراش وسط ذهول النساء وتفرست -كمن يصحو من نوم العصر- في كومة النساء الجالسات حول فراشها ، وسألتهن بريبة حقيقية عن إخوانها وأخواتها واحدا واحدا ، وكلمت الحاضرات بأسمائهن وسألت عن أشخاص مات بعضهم قبل سنين .. ثم طلبت طعاما لتأكل، مؤكدة على كلماتها كأنها قادمة من عالم آخر، كلمة، كلمة، حتى لا يخطئ أحد .. حليب بخبز التنور،وعصيدة برّ ممزوجة بسمن الماعز. تدافعت النسوة للخارج ملبيات طلبها لإحضار الطعام والماء مغالبين دموعا تنهمر فيمسحنها بأطراف الأيدي والأكمام .. ظنا منهم أنها صحوة ما قبل الموت ..

دبت في البيت حركة مفاجئة وأحضروا ما طلبته. وظل الجميع بعد ذلك يترقب حال البنت أياما عادوا خلالها للحديث عن الأمور الدنيوية والعلاقات الخاصة تحت الفرش الزوجية.. تزوجت فلانة وتطلقت فلانة.. بعد أن كن قد توقفن عن ذكر أي

من الشؤون الحياتية احتراما لحالة بنت عوض، اذ لا يجوز أن نتكلم بحضرة الأموات عن أمور لا تخص عالمهم ..

كن يتكلمن ويراقبنها كأنها ولدت للتو، لكنها خلال ذلك انطلقت تلعب مع الصبية في البيت وخارجه. تصعد السطوح وتنزل أسرع منهم. تسابق العيال فتسبقهم. تلعب معهم لعبة الغميضة وما أن تنتهي من عدّ العشرة بصوت عال، حتى تنطلق كالبرق،وتبدأ في التقاط الأولاد والبنات المختبئين في الظلام واحدا إثر واحد!،كأنها تأكل حبات من اللوز. حيث تفاجئهم بينما هم يرتجفون ضحكاً مكتوماً كالأرانب في أماكنهم المتباعدة، وتستخرجهم بهدوء ودون ضجيج، ضاربة على ظهر كل واحد ثلاث ضربات متوالية وسريعة، وعائدة بهم مثل قطيع!.

كل ذلك والجميع هائم في بحار من الحيرة والترقب والجزع خوفا من ان تعود لعالم الفناء الذي بالكاد جاءت منه .. وكلما أخذت الفتاة من صبي او صبية لعبة او عروسة قالوا لها:

- خذيها يا زينب، هدية مني لك!

طامعين في استرداها قريباً لو ماتت الطفلة .. لكنها استمرت تلعب وتلعب، وتتلقى الأعطيات من الأطفال ذكورا وإناثا، فجمعت تحت درَج البيت أكواما من العاب الأطفال الذين في شارعهم وفي الشارع المحاذي لهم، كلهم أعطوها طواعية لا تعلم لماذا!.. كلما طلبت شيئا أعطوها .. كانت تصعد فوق أثاث البيت الخشبي وتنزل بقفزة واحدة مثل مصارع صغير من وزن الريشة، وتتحدث كأنها لم تمر بوخزة الموت أبدا ..

حين رأت ذلك جارتهم أم ظافر أشارت على أمها أن تذهب بهدية صغيرة الى شيخ في ناحيتهم من أهل الخير منعزل، يصلي الجمعة ويقرا على المرضى ويعالج بطلاسم ورقى،ويأخذ أجراً معقولا في حال بقي المريض حياً أكثر من ثلاثة أيام بلياليهن.

ذهبت الأم وقصت عليه ما مرّ على الطفلة من أحوال فاطرق الرجل قليلا ثم استفهم عما قالته قبل أن تصحو من رقدتها الأخيرة، فأعادت عليه ما قالته الطفلة، وسأل عن عوض فقالت انه مسافر منذ شهر في البحر، فقال بثقة وحزن:

- ترحموا عليه إذن .. أبوكم يرقد الآن في الماء!.

بعد مقالة الشيخ تلك تحول الحزن من الطفلة الى أبيها الغائب، وزاد الحزن وتضاعف حين وجدت البنت ضمن كومة الهدايا التي تحت الدرج، دفاتر وأقلاما للرسم، فصارت ترسم أسماكا وبحارا لم ترها في حياتها، وعندما سألوها قالت إنها ستريها لأبيها حين يعود محملا بالهدايا .. وكلما رآها أهل الدار منكبة على الأرض ترسم انهمرت دموع مدرارة، إلى أن تطوعت خالة البنت وأخفت الألوان والكراسات عن الصبيّة، مخففة بذلك من انفطار القلوب..

بكى حينها أهل الحي بأكمله وبكى بعض العابرين، وتألم الزوار مما سمعوا، وتعاطفت معهم قلوب كثيرة الى حد أن موظف شركة الكهرباء المعني بتسجيل الاستهلاك الشهري للبيوت، قام بتزوير الرقم في عدادهم واحتسبه كالشهر الماضي،مع حقيقة أن الرقم هذا الشهر أكثر بكثير، بسبب تشغيل المكيفات والإضاءة للزائرين المتكاثر عددهم، و تشغيل المراوح في الغرفة المخصصة لأطفال النسوة الزائرات والذين ينامون بعد خمس دقائق من جلوس أمهاتهم لشرب القهوة، وفي فم أحدهم رضاعة حليب لم يشرب منها سوى أقل من الربع.

وفعل الشيء ذاته عامل التحميل والتنزيل في سيارة المشروبات الكبيرة التي تمر بالحارة كل يومين، فقد غض الطرف عن خمس زجاجات مكسورة تخص الشراب الأسود، وثنتين تخص الشراب البرتقالي ، وواحدة للشراب عديم اللون، حيث أعلن انه "لا مشكلة".. معيداً إلى منزل أهل البنت صندوقا مليئا يهتزّ بالزجاجات عن آخره، دون خصم قيمة المكسور.

في حين مرَّ موثق مصلحة المياه لتسجيل فاتورتهم من عند البيت وكأنه لم يره !. لكنه -بعد تركه العواطف جانباً-، أضاف قيمة الفاتورة المتواضعة مقسومة لنصفين بالتساوي، إلى البيتين الذين بعده. وذلك كناحية تنظيمية لا أكثر!،مراعيا بهذا عدم إرهاق خزينة الحكومة بإسقاطه للتعرفة -في كل مرة- عن البيوت التي تمر بحالة حزن، من دون تعويضها. وكل ذلك بالطبع مصحوباً بحسن النية، حتى تتمكن "الوزارة المائية"،في المستقبل من إكمال مشروعات التنمية المستدامة.

في الصباح، كانت العاصفة قد ولّت وعاد كل شيء إلى مكانه والسفينة هادئة مثل حوت نائم..

وجدنا عوض مطرقا للأرض وصامتاً يكنس سطح المركب من بقايا أسماك قذف الموج بها، ويغسله بالماء من آثار الأملاح.. .. كنت أول المقبلين نحوه مذهولا.. وحين رآني رفع رأسه وعيناه تومضان فرحا ودموعاً، وبادرني بقوله:

- أبشرك يامفرح، زينب بخير ..!

قال مفرح بن هود ..

في رحلتنا .. رافقنا بحار متحمس من الإدارة الدينية في قطاعنا البحري،ينحدر من إحدى قرى الجبال الجنوبية،لم يركب البحر سوى مرات قليله وأغلب وقته كان يقضيه في توزيع أوراق تحث على الخير، ودفاتر صغيرة لأذكار نبوية، وبعضها عن كيفيه أداء الصلاة بشكل صحيح .. في بداية العاصفة كان يحثنا على أن نصلي طالبين انقضاء الكارثة، لكننا بدلا من ذلك رحنا نبحث عن عوض إلى ان عرفنا انه فوق الصاري يجادل البحر ..

كشف لنا البحار بعد انقضاء العاصفة وهو يضحك انه كتب وصية إلى أهله سرعان ما مزقها بعد استواء السفينة في البحر، وحين سألناه عن محتواها قال دون تردد انه طلب في وصيته تلك من زوجته ألا تتزوج بعده أبدا لتكون رفيقته في الآخرة، وأخبرنا انه تحت تأثير الخوف واليأس كتب في الوصية أننا قد متنا جميعا..! وأننا لا تطلب سوى ان ندفن في مكان يليق بنا بدلا من قاع البحر! ، وأضاف أنهم في حال وجدوا جثته في حالة جيدة، فانه يأمل أن يدفن في أي مقبرة للمسلمين بعد ان تتم الصلاة عليه في المسجد الحرام، وأكمل وهو يواصل الضحك، انه بعد أن يئس أن نصلي معه، صلى لوحده في غرفة المؤن، ولكنه بدلا من يصلي صلاة الرجاء، صلى عن طريق الخطأ صلاه الاستسقاء.

افتقدنا عوض ذات ليلة من السفينة في كشف حضور الساعة السابعة، وأمرنا القائد بالبحث عنه في كل مكان، وفعلنا ولكننا لم نعثر عليه، فلم نشك في أن بخيتة اختطفته لباطن اليابسة او أنها ألقت به في قعر البحر وهربت بلا عوده .. وقال عبده الأكحل في حمى البحث والحزن المسيطر على الجميع :

- قلت لكم.. لا أمان لشيطانة أبدا حتى يوم القيامة!.

وذرف بعضناً دموعاً حقيقية، وهممنا بكتابة تلكسات للقيادة على الأرض لنشعرهم باختفائه حتى يتولوا إخبار أهله بفقدانه ، لكننا في آخر لحظة عثرنا عليه بعد يومين

من البحث أسفل السفينة في غرفة منزوية قريبة من المحركات،أكدّ الجميع وأقسموا أنهم بحثوا فيها مرات ومرات.

عثرنا عليه جالساً القرفصاء يأكل عريكة طازجة-حلف حمدان الأشرم بحياة والده أنها لم تصنع إلا في المنزل-، معلقا على رقبته ثعبانا بحريا صغيرا جسمه عبارة عن حلقات بالأبيض والأسود مازال يتحرك في حركات حلزونية.

حين سألناه عن سبب اختفائه قال انه لا يتذكر شيئا سوى انه نزل للأسفل ووجد طعاما علم انه هدية من والدة بخيتة صنعته بنفسها إكراما لزوج ابنتها!. وأنه بقي مع زوجته وعمته في المكان ذاته وقتا لا يعلمه، وأنهما رحلتا للتو حين نزلنا ،وقبل رحيلهما أهدتاه هذا الحيوان المعلق في رقبته كرمز للمحبة والوفاء من ام بخيته التي طلبت الدعاء لها بالسلامة وطول العمر،حيث إنها على وشك السفر لجبال بعيدة بحثا عن أبناء مفقودين هناك من أزواج متعددين، موصية إياه بالعناية بابنتها الغالية..

هذا كل ما قاله لنا ذلك اليوم، في حين انتشرت في الغرفة الصغيرة و في أرجاء المكان رائحة السمن الأصلي ما جعل حمدان الأشرم يدعو على نفسه بان تقطع يده مشيرا إلى كتفه إن لم نكن هذه العريكة مصنوعة في قريته وبالتحديد في بيت خالته فاطمة التي اشتهرت بمواهب متعددة من ضمنها التفنن في إعداد أطباق من العريكة بالسمن والتمر تبيعها في سوق "الثلوث"، ويقبل عليها السكان اعتمادا على الرائحة الزكية لوحدها، ويبالغ بعض المعجبين بفنها فيذكرون أن رجلا اشترى منها طبقا فارغا فقط لان رائحة العصيدة ما زالت ماثلة في الطبق، ويقولون ان امرأة أصابها الوحم على عريكتها ولم يستطع زوج المرأة دفع تكاليف العريكة في كل مرة تطلبها زوجته، فخرج الطفل من بطن أمه ورأسه يقطر سمنا! ..

تأكدنا ان عوض يأكل طعاما لا يمكن ان يُعدّ في سفينتنا هذه ..وأدركنا حينها انه يعيش بلا ريب .. في عالم آخر غير عالمنا..

تشارط حمدان وسالم فيما يشبه رهانا سريا بينهما على ظهور بخيتة. كان ذلك في رحلة العودة للوطن بعد أن احتجبت بخيتة عن الظهور أياما وأصبحنا نرى عوض كما نعرفه في السابق يتحدث بلسانه ويصلي معنا ويقرأ القرآن ويلعب الورق بحماس أقل ولكن دقته في تسجيل نتائج اللعب لم تتغير.

إن ظهرت يدفع سالم عشرة ريالات بالإضافة إلى كأس من القرفة المغلية يصنعها بنفسه لحمدان الأشرم ، وباعتبارها المنافسة الأولى بينهما فقد أضيف لبند الفائز

منهما مناوبة ليلية كاملة يقدمها المنهزم عن طيب خاطر في حال استجابة بخيتة لجميع الطلبات بعد ظهورها.

وبالفعل فقد تقدما من عوض- بعد توثيق الرهان شفهيا أمام عدد منا- فيما هو قائم عند طرف السفينة يأكل موزا ويلقي بقشره الى البحر مراقبا دوامات تنتج عن حركة كائنات صغيرة تقترب من قطع موزه المنثورة على امتداد أميال، مسلما قياد فكره لهواء الليل، ومحلقا في آفاق لا يعلمها الا الله ..

قال حمدان بتودد:

- كيف حالك يا بخيتة اليوم!

لم يكلف عوض نفسه مجرد النظر إليهما لكنه التفت نصف التفاتة باتجاه الصوت وقال:

- ليصنع كل واحد منكما لنفسه القرفة المغلية. لكن لا تشربوها.. "تروشوا بها"..!

في إشارة منه إلى عادة تتبعها النساء في ذاك الوقت قدمت مع الأتراك، حيث كن ينقعن أجسادهن بعد الطهارة من الحيض في مياه دافئة تضاف لها القرفة المغلية وورق الغار المجفف وقليل من السدر البري لطرد الشياطين.

أشعل مفرح بن هود سيجارته الثالثة، وكان قد انتظر وقتا قبل أن يبدأ بالتدخين زاعما أنه أقلع عنه ثم عاد إليه مرات كثيرة .. وقال:

التقيت عوض بعد التقاعد بسنوات صدفة وهو يدير معرضا لبيع السيارات المستعملة والجديدة في ناحية من المدينة فرحب بي وتبادلنا الحديث ساعة، تذاكرنا فيها أحداثاً مضى عليها زمن طويل،بعضها يمتد إلى نصف قرن وبعضها لا يزيد عن عقد أو عقدين .. وترددت ثم سألته:

- كيف صحتك الآن وهل تواصل الرقية الشرعية؟

كل الاحتمالات وضعتها.. فربما أغمي عليه من جديد في هذا المكان بسبب سؤالي إذ ربما عادت إليه الجنية القديمة،ولكنه حين سمع سؤالي أطلق ضحكة رجولية عالية لا تشوبها شائبة قرأت فيها أشياء كثيرة، من ضمنها انه أصبح صاحب مال وحلال،وإلا لما ضحك مثل وغد مجنون بين زبائنه وموظفيه ..

- أي جنية تقصد؟!

قال وهو ينظر في عيني، ولم أكن قد ذكرت له "جنية" من قريب أو بعيد، فاستعذت بالله سرا وحاولت تغيير مجرى الحديث، لكنه قال وهو يقوم من على مكتبه:

- خذ راحتك..

وخرج للقاء أحد الزبائن أو لمعاينة سيارة ما ..

رفعت رأسي في الغرفة الواسعة المحتوية على مكتب خشبي مستعمل، كان يجلس عليه فيما يبدو المدراء في جهات حكومية، عليه هاتفان ، وجهاز هاتف أخر مثبت في شاحن كهرباء صغير يستخدم ربما حين يكون خارج مكتبه، مع جهاز كمبيوتر حتما هو للزينة لعلمي انه لايجيد استخدام أي أجهزة حديثة ..

مازالت تحيرني قصة البنت الصغيرة، وكيف عرف انها مريضة وهو معنا لم يغادر؟ وكيف عرف أنها شفيت وهو بيننا لم يتصل به أحد! .. انتظرت في مكتبه حتى عاد الهدوء، بعد معالجته في الخارج لزبون بطيء الكلام متردد في الشراء، لكن عوض نجح في بيعه سيارة مستعملة بقيمة جديدة، ولم اعترض على شيء فلزبون عيون وللناس أهواء .. وأردت ان أودع حيرتي للأبد فسألته فجأة:

- كيف حال ابنتك .. ماذا كان اسمها؟! ..

في محاولة مني لاستدراجه ..

قال وهو يعد رزمة من المال إمامه، متجاهلا عدم معرفتي باسم البنت..

- زينب؟. أبشرك تزوجت قبل سنة!.. قلت له فورا: "مبروك"! وتمنيت لها حياة طيبة ..

أصبح سؤالي التالي عن الرقص وأصوات الغناء الغير مفهوم، على بعد رمية حصاة، لكني غيرت مساري فجأة وسألته عن العريكة بالسمن لإحساسي بأنها أكثر أهمية:

فأجاب وهو يضع النقود جانبا بعد ربطها برباط بلاستيكي:

- لم آكل أي عريكة أو غيرها، لا بالسمن ولا بزيت السمسم!، .. لعلك تخلط الأمور ..

شعرت أمامه بقلة الحيلة، كمن جردني من أسلحتي كلها دفعة واحدة، لكني عدت للنزال من جديد :

- وكيف عرفت بمرض البنت تلك الليلة في السفينة؟!

ضحك مجددا كما توقعت، ربما بفعل أرباحه التي حصل عليه للتو، وربما اعتبرني وجه سعد من نوع ما .. وقال وهو ينظر الى المال:

- لدي قلب يا بن رحمة الله..!

لا أدري لم كلمني باسم والدتي، وقلت في نفسي ربما ليذكرني بمعرفته أيام السفينة بلقب جدي واسم توأمي المتوفى، ولعله يضمر مفاجأة أخرى من النوع والعيار نفسه، وقد كنت أيامي تلك، في زمن لا يصلح للمفاجآت، ولا للذكريات التي تعيد نفسها للسطح مرة أخرى .. كنت حينها مكتفيا من الخيبات ولا مجال للمزيد..

نظرت إليه مبتسما ابتسامة خوف قَلِق .. فأضاف حين رأى ارتباكي..

- إذا كان لديك قلب يابن هود، ستعرف كل شيء حين تكون محتاجا إليه! .. وخشيت أن أتمادى في طرح الأسئلة، فيتمادى هو في ذكر وقائع من الماضي أتى عليها الدهر، ولا أحب بعثها الى سطح ذاكرتي من جديد .. واكتفيت بان دعوته ليتعشى معي ذات يوم حين تسنح له الفرصة . كنت انوي الذهاب فعلا بلا عودة، لكنه طلب مني البقاء لأنه يريدني في أمر ما.

خرج من المكتب وتناهى إلي صوته يكلم أحد العاملين معه، وانتظرت لعلي أجد جوابا لحيرتي. حضر بعد مدة من الوقت يحمل صينية شاي وقهوة قال انه صنعها

بنفسه ترحيباً بي. جلس في مقابلي وحين تأملته عادت بي السنوات إلى الوراء أكثر من عشرين عاماً أو يزيد، حين كنا نلعب الورق، ونذهب في رحلات البحر ونتعارك أحيانا لأسباب مختلفة، ثم نتصالح ونقيم الولائم، فإذا بها عشرة عمر يستحيل أن تذهب سدى .. وإذ بي قد تركت خلفي تاريخاً حافلا بالناس والأحداث، والحب والكراهية والرضا والغضب.. كان عوض جزءا من ذلك التاريخ البعيد وها أنذا اليوم التقي به في زمن يأتي بعد خريف العمر، وقد سقط عنه رداء الغموض، وودع مرحلة الصخب .. كان ملء السمع والبصر في ليالي المعسكر على الأرض وفي السفن التي يرحل فيها .. تأملت ذلك الوجه الأشيب بلا أقنعة، فلم أرَ سوى أبا صالحا حلو العشرة طيب السريرة ..

هل كان يمزح معنا ليسلينا عن هموم الدنيا؟، هل كان يمثل دورا مخيفا ليعلمنا الشجاعة؟ أوربما كان يخبرنا بطريقته أن الدنيا تشبه مومساً، صعبة الفهم سهلة العبور؟!.. لكني أدركت بكل الأحوال وأنا في حضرته بعد انقضاء سنوات الهيجان تلك،أني أمام رجل لم يؤذ أحداً، عاش بأسلوبه الذي يناسبه، وتفنن في الأخذ والعطاء على طريقته ..

سألني عن الأصحاب فأخبرته بما اعرف من أخبارهم .. سالم بخير ، وسعد بن غرم خرج في رحلة صيد للبر مع أقارب له ومات هناك بلسعة ثعبان خبيث. وعبده يعمل الآن حارس مدرسة للبنات بعد التقاعد، ولا اعلم عن بقية الأفراد الذين كانوا زملاء لنا، ثم تفرقت بهم الأرض..

قال لي عوض بودّ، وبلا تكلف، كعادته: "يلقي بالكلمات الثقيلة قبل الخفيفة" -هكذا وصفه احد الرفاق في زمن آخر-:

- كل ما كنت تراه وتسمعه مني ليس حقيقياً! .. كنت أخترع تلك الخرافات من تلقاء نفسي لابتعد عن أوامر الضابط الجديد ومناوبات الحراسة!.

قلت مدفوعا برغبة غريزية تلاشى أكثرها وبقي منها القليل:

- والأصوات النسائية؟!

أجاب كمن يتحدث عن فوز تلاشى في القدم ولم يعد له أي معنى:

- كنت أمثل عليكم وأنتم -الله يهديكم!-تصدقون أي شيء.

خشيت أن يسبق فرسه فرسي في الحوار فقلت مباشرة .

- طيب! ، واللغة الهندية والفارسية ؟!

لمعت عيناه وعاد للضحك كأنه تلقى إشادة على مستو عال، وأجابني:

- لا فارسية ولا سوفيتية!، كانت مجرد مقاطع وكلمات علمتني إياها جارة لنا جاءت من الهند للحج، ثم استقرت في شقة فوق بيت زوجتي الثانية، وكانت تنزل إلينا كل وقت في البداية للحديث مع الزوجة ومشاهدة التلفزيون حين أكون غائبا. وانتهى الأمر بان صارت من أهل البيت. تطبخ لنا، وتنام عندنا أحيانا، وترد على جرس الباب، وتطلب مني بعض المال لسداد فواتير الكهرباء للبيت، وتشتري لنا الأغراض من فلوس أتركها عندها. وفي إحدى المرات أعادت طلاء غرفة الأولاد والصالة بالبوية ذات النصف لمعة، توقعت أنها تستشيرني حين كلمتني بلهجتها عن صبغ الجدران، وعندما أخبرتها بأنه لامانع لدي،-"مافيه مانع"-قلت لها،أجابتني بأنها قد دهنت الغرف بالفعل، وأنها تعلمني فقط كي لا ألمس الجدار اللزج قبل أن ينشف خلال يوم وليلة!.

كانت تعد الشاي لضيوفنا، بالنعناع والحبق وزهور النارنج،وإكليل الجبل، التي تزرعها في أحواض عند باب الشقة من الداخل،وتتعاهدها بالسقاية بشكل يومي، وحين تذكرَت فجأة أنها لم تسقها لأيام عدَة، طرقت الباب علينا عند الظهر، طرقات قوية تشبه صاعقة وكأن حريقا نشب في البناية، ففزع الأطفال والكبار، ما اضطرنا لعمل نسخة من مفتاح البيت خاص بها لتقوم بواجباتها عند اللزوم دون طرقات مماثله.

زرعت لنا في وقت لاحق الكزبرة لتضيفها للسلطة، والصبار للعناية بشعر البنتين وأمهم، والبقدونس لاستخدامه في الطعام الذي تعده، مع بعض الورود والياسمين لكي تستخدمها البنات في الحفلات المدرسية كهدايا للمعلمات الأكثر صرامة في إعطاء الدرجات.

لكنها توقفت عن زراعة الفاصوليا المنزلية الحمراء لأن جميع أهل المنزل أصيبوا بعد أكلها بنزلة معوية،جعلتنا نشغل جناحا كاملا في المستشفى الحكومي ليومين، مصطفين في مجموعتين متقابلتين تحت الملاحظة حيث أعدت لنا الجارة شيئا من حصادها لذلك الموسم، والذي تبين فيما بعد انه ليس فاصوليا حمراء بل نبات هندي له شكل ولون الفاصوليا، لكنه لا يقدم للبشر وإنما يقدم كطعام للخيول في موسم التزاوج بعد إضافة سكر التين المجفف على شكل مكعبات، بهدف زيادة النسل..

وحين علمت بذلك حمدت الله أن الأمر توقف عند ذلك الحد، وقمت بتنبيه الجارة بزراعة كل شيء ماعدا البقوليات!، وأن هذا التنبيه يشمل الفاصوليا الحمراء والبيضاء والعدس، حتى لو أرادت ان تزرع البطيخ..

اتخذت قراري حينها، والذي أبلغته للجارة كلمة كلمة .. قلت لها ذلك غير متوقع لتبعات ما أقول:

- أرجوك!، ازرعي أي شيء تريدين حتى الحبحب !. لكن،"لا فاصوليا في بيتي"!.

إذ لم اعلم بأن أطفال هذا الجيل كالشياطين، يلتقطون أي تعبير بتهكم. عدا ان أولادي وبناتي بطبعهم المشاكس، سيأخذون ما قلت ويجعلونه مثلا على ألسنتهم كنوع التندر:

البنات يقولون للأولاد:

- "أرجوك!. لا إزعاج في غرفتي"..!

والأخت تقول لأختها بغضب في البداية، قبل أن يحتضنا بعضهما منهارتين ضحكاً:

- "أرجوك.. لا عبث في دولاب ملابسي".!

والأخ يقول لأخيه الصغير -حتى بحضوري-:

- عبدالرحمن، يا "خـ....."! ، لا شخبطة في كتبي!.

ولم أفهم إلا بعد مدة أنهم حرفوا أوامري لتصبح بشكلها ذلك ..

حتى الأم الغارقة نصف يومها في النوم، والنصف الأخر في محادثات هاتفية مع أخواتها صارت تأمر وتنهى محذرة أطفالها على طريقتي المحرفة:

- لا أكل في مطبخي!. لا نوم على سريري!.

ولم يعد مفاجأ لي -ضمن مفاجآت الحياة -أن تصل مقالتي تلك إلى حد بعيد،وتأخذ شكلاً رسميا، فقد سمعت أن مديرة المدرسة المتوسطة الواحدة والثمانون وتسمعائة انفجرت صارخة في صباح يوم التفتيش على الشعر والأظافر، موجهة حديثها للطالبات في الطابور -بينما هي تقصد المعلمات-:

- لاعبايات مزركشة في مدرستي!.

اختفت الجارة خلال اليومين الذين قضيناهما في المستشفى، وظننت أنها مستحية من فعلتها، لكن الأولاد والبنات المرافقين لي في الإقامة تلك بالإضافة إلى أمهم الممددّة في غرفة لوحدها، أخبروني أن الجارة كانت ضمن طاقم الممرضات الملثمات خوفا من العدوى واللاتي قمن على رعايتنا، حتى إن إحداهن سألتها إن كانت موظفة جديدة بالمستشفى؟ .. تقدم الأدوية للأطفال وترفع صواني الطعام، وتنظم الزيارات التي انهالت علينا.. وحين نخلد للنوم، تقوم بمساعدة مرضى آخرين على المشي لدورات المياه البعيدة ذهابا وإيابا في السيب ذاته التي نقيم فيه. وبعد عودتنا للمنزل وجدتُ في الثلاجة كمية من الأدوية المسكنة، وبعض إبر تخفيض الحرارة وأربع مغذيات كاملة، قالت إنها أخذتها من المستشفى بطريقتها كنوع من الاحتياط في حال تعب الأطفال ..

في إحدى المرات ذهبت لمدرسة البنت تناقش إحدى المعلمات بلغتها العربية المكسورة، لأن معلمة العلوم ضربت الطفلة على ظهرها بالمسطرة وكتبت على يدها بقلم الحبر الأحمر : "مهملة":!. كان ذلك مقبولا بنظري، حتى حضورها لمجالس الأمهات وإلقاء الكلمات الترحيبية نيابة عنا، وتجهيز مصروف المدارس للعيال.

الشيء الوحيد الذي اعترضت عليه هو توقيعها بالموافقة بدلاً عني في خانة ولي الأمر في بعض المراسلات مع مدارس الأولاد،خاصة تلك التي تتعلق بذهابهم لرحلات للملاهي في الصباح،أو تلك التي تتضمن معسكرات للطلاب في البر لعدة أيام.. لكني تقبلت ذاك مع مرور الوقت، وكثرة غياب صاحبة المنزل "زعلانة" أو مريضة، أو في بيت أهلها بحجج مختلفة.

انقطعت الجارة لوقت طويل بعد أن تزوجها مواطن، ثم عادت فجاة. فقد انتبهت من النوم على صوت المكنسة الكهربائية عند الثالثة فجرا، بينما الزوجة غائبة. وحين رأيتها جاثمة تكنس البيت سألتها عن زوجها فقالت انه طلقها فعادت إلينا، ففرحنا بها من جديد ..

عادت كماهي تقوم بواجبات لا يمكننا نحت القيام بها.. و كل هذا دون طلب منا .. فقط كانت تعمل الأشياء من صميم ذاتها.

حين كانت زوجتي على وشك الولادة، قامت على خدمتها كأفضل ما يكون، حتى إنها قامت بتوليدها في المنزل على الطريقة الهندية. وحين رجعت من العمل قبيل المغرب كان أول شيء سمعته عندما دخلت المنزل صوت طفل مولود للتو.. توقعت أن الصوت منبعث من التلفاز فإذا به ابني "عبد الرحمن" مغسلاً ومدهوناً بزيت جوز الهند المضاف له قطرات من زيت اللوز،وملفوفا في قماطات بيضاء معطرة ودافئة، مع لطخات من بودرة برائحة الياسمين على الوجه والخدين، فيما عيناه مكحلتان بالسواد، و مبخرا بعود اندنوسي مخلوط، مع نقطة بالكحل في ذقنه لمنع الحسد، فبدا مثل فأر أبيض مغمض العينين، محشور في شرنقة. وأمه راقدة على السرير بجانب طفلها في أتم صحة: والجارة العزيزة تقوم بإطعامها مرقة لحم مضافاً إليها الليمون والفلفل الأسود وشيئا من الزنجبيل غير المطحون . مرة تطعمها بالملعقة، ومرة بخبز البر الساخن, وذلك بعد أن سقتها قهوة قشر مطبوخة مع القرنفل و قليل من خيوط الزعفران.

.وفي أثناء محاولاتي الملهوفة لفك الحبال التي ربطت بها قماطات الطفل لمعرفة جنس المولود، اصطدمت يدي بما اعتقدته، بلاشك، قطعة نقود معدنية لكبح جماح الحبل السري المتورم. لكن ما ظننته نصف ريال معدني ملصوق على سر الجنين لم يكن سوى وردة حمراء مغلفة بأوراق الأوريجانو الخضراء، وبادرت الجارة العزيزة-حين رأتني ارفع الوردة – فأفادتني أن ذلك من أجل تحسين رائحة ومذاق البول، لأنها تنوي تذوقه بين وقت آخر للتأكد من أن معدة الطفل تعمل بشكل منتظم.

قال مفرح وهو يشعل أخر سجائره :

تطلعت إلى رفيقي القديم عوض، اطلب إجابات لأسئلتي فقال كمن يقود مركبا ويبصر غريقاً لا ينوي إنقاذه:

- كما أخبرتك!.. من الجارة تعلمت كلمات، ومن الإذاعات العربية عرفت أغاني ومواويل تعلمتها بالممارسة. وكنت أمزج لهجات وأغاني تعرفونها،لكنكم كنتم جاهزين لتصديق أي شيء .. كنت قادرا على خداعكم لأنكم تنظرون للشيطان المزعوم في داخلي ولا تنظرون إلي.! ، ولولا أني

خشيت ان تكتشفوا أمري لغنيت لكم بلغات أجنبيه،أمريكية، وصينية،وإيطالية، وكل اللغات.

لم أحصل من عوض على الكثير . لعلمي بأن الحقيقة ما تزال محتجبة عني.. بيني وبينها مسافات لا أستطيع خوضها ..

بدا لي وقتها كما هو.. مراوغ في لعب الورق، وفي الإجابات، وكل شيء .. كل ما شعرت بها تجاهه هو المودّة .وودعته وأنا أكثر حيرة من ذي قبل.

كنت بالفعل أسبح في بحر حيرتي.. فقد سبب عوض لي اليوم الخوف، أكثر مما سببه في أي وقت مضى.

القسم الخامس

اختار أعضاء الفريق ان يقضوا الليلة هنا وكان الجو دافئا والليل قصيرا..

قام السيد روبنسون بمحادثات بالهاتف مع مدير الشركة، كما أبلغ سفارة بلده بمكان تواجدنا، إضافة إلى معلومات حول رحلتنا.

نام الجميع في الحافلة .. وأثناء الليل سمعت السيد روبنسون يتكلم في نومه واعتقدت في البداية انه يتحدث مع شخص بالهاتف أو مع زوجته في الخلف، وحين استوضحت الأمر وجدته في نوم عميق:

"أيها القائد دع الجميع يكملون عيشهم! .. قد يبنون حضارة في مكان ما!"..
"أسعدوا زوجاتكم أيها الأوغاد إن عدتم إليهن ومازلن وفيات لكم!" ..
ثم في نوبة بكاء مكتوم بصعد من القلب مباشرة سمعته يقول:
" هذه الوعلة الصغيرة تسكن روحي! "

في الصباح، كان روبنسون أول المستيقظين، وكنت قد قمت قبله وأعددت لنفسي القهوة، بانتظار استيقاظ بقية الفريق لنواصل الرحلة وسط نسمات الهواء التي ما تزال بعد تحمل برودة الليل في جوف الصحراء، لكنها تنذر بيوم حار من أواخر سبتمبر .

بعد ارتفاع الشمس في الأفق وجدنا أنفسنا أمام خيام سوداء متناثرة، كأنها نصبت إثناء الليل. كانوا فيما يبدو جماعة من البدو الرحل، اختاروا هذه المنطقة ليقضوا بها أشهراً قبل أن يرحلوا لمكان آخر ..

تقدم منا ثلاثة صبية متأملين الحافلة أشبه بصعاليك مبتدئين، ووقفت فتاة واثبة النهدين تراقبنا من بعيد واضعة يدها أمام عينيها لتحجب عنهما أشعة الشمس المباشرة.

اقتربت طفلة في العاشرة من نادين وأخذت تنظر إليها من على مسافة قريبة وكأنها ترى شبحا، وانضم الأطفال الثلاثة للطفلة، ووقفوا جميعا أمامنا مندهشين من ملابس النساء والرجال. نادتهم السيدة نادين فتقدموا إليها وصافحتهم وهي تقول بالعربية:" أهلا.. ما اسمك؟" ... كانت الطفلة تلبس ملابس من قطعة واحدة صفراء

طويلة الأكمام ومزينة بقطع حمراء اللون .. ولون بشرتها يميل للسمرة بفعل حرارة الشمس، خداها محروقتان، وشعرها اصفر .

قدمت لهم نادين حبات برتقال جلبتها من السيارة، فأخذ الأصغر منهم البرتقالة وهرب بعيداً ، ثم تبعه الآخر لائذا بأخته الواقفة على التل المقابل ..

بعد دقائق، تقدمت إلينا امرأة تلبس البرقع،وثوباً احمر واسعاُ مزيناُ عند الأكمام بحلقات صفراء وخضراء من قماش مختلف،ودعتنا الى خيمتها

- "تفضلوا استريحوا " قالت المرأة ..

أنا ونادين تبعناها، ثم لحق بنا البقية.

في مسيرنا إلى الخيمة الواقعة بين مجموعة تلال منخفضة، طاردت حجلة أرجل نادين طوال رحلة المشي، ومع أنها قامت بتحريك ساقيها أكثر من مرة كيلا يلتصق بها الطائر إلا أن الحجلة كانت تعود بعد أن تذهب بعيدا للالتصاق بها، حتى إنها كادت تسقط حين سبقتها الحجلة بمسافة طويلة ثم ارتدت بسرعة بين قدميها من جديد.

في خيمتها ذات الألوان المتعددة،الحمراء والبيضاء والسوداء،جلسنا جميعا وكان زوجها نائما في زاوية الخيمة، وحين استيقظ لم يبدي أي اهتمام بحضورنا.

في جوانب الخيمة شاهدنا الكثير من الأواني النحاسية، ودلال القهوة. سألتها نادين عن سبب تجميع هذا العدد من الدلال معتقدة أنها نوع من تجارة التحف، قالت السيدة أنهم لا يتاجرون بها ، وأنهم يحبون الترحيب بالضيوف لا أكثر ..

رحبت بنا المرأة وسألتنا أسئلة حول رحلتنا, وسألتها نادين عن أساليب العيش في مثل هذا المكان البعيد، فأخبرتنا أنها تقرأ الكف وتتنبأ بالمستقبل، وأن كثيرين يأتون إلى هنا .. تجارا،وضباطا وموظفين في أجهزة الحكومة، ومغامرين يبحثون عن الثروة، وعشاقاً يسألون عن عدد الرجال الذين سكنوا قبلهم في قلوب من يعشقونهن. ونساء ثريات يقرأن الطالع لأزواج يرغبن في تفصيلهم على المقاس. أضف لذلك محرومين من الأبناء يأملون أن يرزقوا بأطفال بهيي الطلعة .. ونساء حديثات الزواج يبغين صنع السم لحمواتهن، ومرضى يطلبون الشفاء، وفتيان وفتيات يسألون عن ملامح أزواج وزوجات في ظهر الغيب لم يأتوا بعد. كل شيء قد تجده في هذه الخيام المتناثرة..

بادرتها بسؤال عن مستقبلي فقالت دون أن تقرأ كفي، إنني سأكون بخير وسأعيش طويلا مادمت أحلق شاربي بشكل متساوٍ!،مبتعداً عن أكل لحم البط!. واعتقدت أنها مزحة لأن الجميع ضحكوا حين أخبرتهم بما قالت، لكنها لم تضحك مما جعلني أعتقد بأن ما ذكره ابن عمي طاهر صحيحا قبل ان اذهب في رحلتي هذه بيومين، حين سألته عن الطريقة المثلى للتعامل مع النساء .. فقال على طريقة العرافين:

- احلق شاربك كما يفعل البشر، وستجد الخير أمامك ..!

بينما بقي الجزء المتعلق بلحم البط لغزا بالنسبة لي،لأني لم أذق بطة في حياتي كلها.. ولربما كان رمزا لشيء آخر لا تحب الإفصاح عنه مباشرة، له علاقة بحياتي العاطفية.

في جانب من الخيمة جلست الفتاة التي رأيتها في الخارج مسندة ظهرها إلى مخدة خلفها، وبين قدميها جلست فتاة دون العاشرة. كانت الأكبر سناً تمشط لها شعرها الأصفر الطويل في جدائل لا تنتهي. ابتسمت الصغيرة حين رفعت رأسها ورأتنا وسرعان ما أعادتها الكبرى بحركة من يدها لكي تنظر للأسفل. نظرت إلينا الكبرى وهي منهمكة في تمشيط شعر الفتاة نظرة سريعة بعينين صغيرتين، ذواتي لون عسلي، تشبهان خرزتين ملونتين ألقيتا في رمل الصحراء.

كنت أراقبهما ونحن نتحدث مع السيدة. وفي دفعة واحدة قامتا كإعلان عن انتهاء حصة التزيين.

قامت الفتاتان بعفوية وسرعة كأنهما غزالين رأيا وحشا في البرية .. عند وقوفها ظهر لي جسد الكبرى منهما، وكأنه منحوتة إغريقية ضاعت من متحف ما، يشبه رسماً من تلك الرسوم التي تركها سكان الكهرف منقوشة على الجدران لغزالات تقفز،وتساءلت! .. هل هذا هو الجمال الذي تغنى به الشعراء في صحراء ليس فيها أبسط الوسائل للعيش او البقاء ؟!. هل هذا هو الجمال نفسه الذي جعل عشاقاً يموتون؟! ..

لا بد انه كذلك بالفعل.. اذ هل يختار رجل بكامل قواه أن يموت من اجل خنفساء او صخرة.. لكنه قد يتألم من أجل جمال إنساني لا يمكنه الحصول عليه..

بدأت وأنا جالس هناك أدرك المتناقضات، وأقارن بينها، وأكون صلة،راسماً في مخيلتي خطوطا مثل التي يرسمها الأطفال في دروس المدرسة بين الكلمات

والصور، تلك الخطوط الوهمية تجعلني أعرف السبب لما يجري .. ليس المهم حدوث الأشياء، المهم كيف حدثت، وكيف يمكن أن تحدث مرة أخرى!.

سألنا السيدة عن اسمها فقالت إن اسمها "خضرا"،وأنها هنا مع أسرتها لمدة شهرين قبل أن ينتقلوا لمكان آخر قريبا في الصحراء الواسعة ..

طلبت أولا من يوهان أن يمد يده لتقرأ حظه من الدنيا. مد يوهان يده متحمساً وهو يقول إنها أول مرة يفعل ذلك، فيما كانت صديقته تنظر اليه والى المرأة بقلق. طلبت منه خضرا ان يغمض عينيه وتلمست كف يده اليمنى وهي تتلو كلمات بلغة لم افهمها .. ثم أفلتت يده اليمنى وتناولت اليسرى .. ونحن ننظر في صمت وترقب ..

كان الجميع في البدء متفاجئين، لكن المفاجأة تحولت الى اهتمام، ثم وجدنا في ذلك نوعا من المتعة، وبعدها، أصبح كل واحد منا يترقب دوره لقراءة طالعه ..

كانت خضرا تمارس عملها بذكاء،وتعبر عن كل ذلك بكلمات تشعر الجميع،أنهم أصحاب حظ وافر. قالت ان حظ السيد يوهان جيد، وأنه يملك عاطفة جياشة تجاه النساء، مما أفرح صديقته جوليا. فسألها يوهان بجدية وهو يمد يده إن كان هناك مايشير الى ثروة قريبه او ما شابه،فعادت لتلمس كفه،ثم قالت كلمات عامة من قبيل:

- "ابحث في قلبك وستجد ثروة لا حدود لها!". وكنت اعلم في داخلي أن يوهان يريد ثروة على الأرض ولا يريدها في قلبه.

اعتذر السيد روبنسون عن قراءة البخت، وقال انه سبب وان قرأه قبل سنوات قليلة في الأردن، ولا حاجة لإعادته هنا..

حين وصل الدور الى نادين ترددت قليلا ثم مدت يدها مبتسمة فأخذت المرأة يدها وتأملتها مركزة عينيها في خطوط تتبعها، وقلبت يدها مرتين منتقلة من يد لأخرى ثم قالت وهي تنظر إليّ:

- حظها طيب !.

أعدت ما قالته خضرا لنادين ، فشعت عيناها بالفرح.

لم يبق الرفاق طويلا، فقد شكروا السيدة وخرجوا عائدين إلى حيث تقف الحافلة استعدادا لمواصلة السير، بينما تعمدت البقاء لأمنحها بعض المال الذي ناولني إياه خفية السيد روبنسون قبل أن يخرج من الخيمة ..

لم ترفض خضرا المال لكنها طلبت مني الجلوس قليلاً وسألتني عن نادين وزوجها أسئلة عادية فأجبتها، فقالت:

- "هذه المرأة قلبها مفطور"!.

سألتها عن الدواء لذلك فقالت عائدة لنقطة البدء:

- حسنا .. أنت لا تعاني من خطب.. لكن المرأة البيضاء تلك عمرها قصير ، وحين تسقط لابد أن تغني هي او يغني لها أحد! .. هذا دواؤها ..

سألتها وكيف عرفت ذلك فأجابت:

- قبل شهر في هذه الخيمة، عالجت رجلا كان يعتقد انه نملة!.

ابتسمتُ مندهشاً ، ومتقبلا سماع أي شيء في مكان كهذا.. فأكملت خضرا:

- "كانت زوجته تضربه وتقول له:"يانملة"!، حتى اعتقد أنه كذلك.

قلت لها:

- إذن كيف عالجت تلك الحشرة؟

قالت وهي تبتسم من وراء البرقع:

- طلبت منه أن يذكر لي أسماء نمل يعرفها، فقال انه لا يعرف سوى أسماء بشر فقلت له اذكرها فقال : احمد، سالم،وخالد ..وبما ان طريقتي في العلاج تعتمد في الأساس على اللمس، فقد لمست رقبته وصدره، ولمست أماكن تشعره بإنسانيته!، فقال في لحظة استرخاء:"إنني أول امرأة ألمسه بهذا الحنو!".

كانت الفتاتان قد ذهبتا ، فقلت بهدوء حتى لا أفسد انتصارها:

- وماذا حصل بعد ذلك؟

قالت:

- عالجته بطريقتي،أليس المهم أن يشفى الناس من أمراضهم؟!

كان موظفاً مرموقاً، ويخشى إن هو ذهب إلى عيادة نفسية ألا يناسب ذلك مكانته فلجأ اليّ في صحرائي التي تراها.

قلت منبهراً لكني غير متفاجئ وأنا أنظر باتجاه الرجل النائم في الزاوية والملفوف ببطانيته:

- هنا؟ في هذه الخيمة تم ذلك ؟!

قالت بصبر:

- المكان ليس مهما .. الشفاء هو المهم..

وحين رفعت إليّ وجهها لترى حجم انبهاري بما سمعت رأيت عينين كبيرتين، وتخيلت أشياء، ورأيت البحر أمامي، وسمعت أمواجا تضرب شطآناً بعيدة فيرتد صداها لجزر أخرى.. يذهب الموج ويأتي، فكأنه الحياة التي لا تتوقف. وكنت كالموج تماماً ، في كل يوم أتحرك،لأتعلم شيئا جديدا.

نظرت إليها باستفهام حاولت أن يكون بريئاً قدر استطاعتي، ولم أستطع فقلت ساخراً:

- وهل عاد رجلا كما قلت؟

قالت:

- نعم!.. متأكدة من ذلك .. فلم يكن سوى رجل عادي لا ينقصه سوى كثير من الثقة وقليل من العاطفة.

أضافت قبل ان تودعني ملبية نداء إحدى بناتها من داخل الخيمة:

- "انتبه !. البشر قد يمرضون بسبب كلمة تقال لهم، لكنهم يشفون بالغناء واللمس..!. حين يغني لنا من نحب نشفى من تلقاء أنفسنا"..

لم أكن أدرك لم يبكي الناس حين يكونون سعداء. الآن فهمت ، ربما يعود ذلك إلى أنهم حين يغنون فإنهم يعبرون حدا فاصلا،وشيكا بين الحياة والموت، بين السعادة والشقاء، والوجود واللاوجود. حين يغنون يشعرون أنهم حضور في هذه اللحظة. الحزن يأخذ الناس بعيدا إلى العدم، إلى حيث تهوي أرواحهم بسببه إلى ظلام يقودهم إلى الجحيم، حيث لا مكان ولا زمان. لكنهم، وبالغناء يعبرون النقطة التي تقع بين النور والظلام فيصبحون أحرارا..

عدت إلى الحافلة مباشرة، وسألت الرفاق إن كانوا مستعدين لمواصلة الرحلة، فأجابوا إنهم كذلك، وبدا أنني تأخرت عليهم ..

نظرت إلى نادين في المرآة التي أمامي فوجدتها تغط في النوم فأخبرت روبنسون بما قالته لي خضرا بشأن زوجته ..

- "حين يراها يائسة قل له ان يغني لها. وان كانت تحب الرقص فليطلب منها ان ترقص" ..

أبدى روبنسون اهتماما بما ذكرته واخبرني أنهما كانا بالفعل يستمعان في كثير من الأوقات إلى صوت ام كلثوم ويحبون أغاني فيروز و عبد الوهاب وأسمهان، حتى ولو كانوا لو يفهمون معنى الكلمات لكنهم يعتبرونها نوعاً من الموسيقى الروحية الجميلة.

لماذا يحبون موسيقانا ونعشق موسيقاهم. لم يحبون الشرق؟ ماذا يرون فيه؟ نحن لا نرى شيئا..!. بالنسبة لي لا أرى سوى الصحراء اللامنتهية، الرمال ولاشي غير الرمال. وأرى البحر بامتداده ثم لاشي وراء البحر. كثيراً ما أشاهد رجالا ونساء يعيشون بلا هدف ولا مستقبل، وأرى في الوجوه حزنا، وفي العيون غضبا لا أجد له أي تفسير. بينما أسمع في كل مكان مناديا للصلاة..! ، فلا أستطيع أن اربط بينها وكأني في عالمين مختلفين..

في الغرب رأيت القوانين والأنظمة تسيطر على حياة الناس وتضبط تمردهم. يرحمون بعضهم،ويرحمون حيواناتهم، ويحبون الجمال في كل شيء ، مضيفين لمسة حسن لكل ماحولهم .. يرسمون.. يغنون.. يرقصون.. يشربون..

حكت لي فتاة قابلتها في لندن سبق وأن عمل والدها موظفا في الخليج ضمن شركة بترول،قالت : انها كانت على علاقة بشاب من الخليج ، تبادلا حبا، او ربما كان ارتياحا في خلال فترة دراسته هناك.. يلتقيان باستمرار ويهديها هدايا قيمتها أعلى بكثير من مكافأته الدراسية. قالت إنها لم تكن تفهم سلوكه ذلك،واعتقدت انه يحاول شراءها بالمال، حتى إنها صرخت في إحدى المرات: "أنا فتاة ولست عاهرة".. قالت انه كان يأمل ان ينتج هذا الحب زواجا وأطفالا، ثم تحول مع الوقت إلى متيم بها، وأصبح تائهالا يحضر محاضراته..

شعرت بأن قومي في سكرتهم يعمهون!،حتى في حبهم مغالين أفاكين .. يبحثون عن الفتات، و يتباهون بالمراكب والملبس معتقدين أنهم بذلك يصنعون المجد.. بينما هو الوهم ولاشيء غير الوهم.

قبل وصولنا إلى منطقة الآثار مرت إلى جانبنا حافلة قادمة من الشمال تحمل حجاجاً الى مكة المكرمة، وقد كنا في موسم الحج. حين حاذونا سمعتهم يكبرون بصوت عال،فأعادني ذلك إلى ذكرى قديمة فقدأخبرني أستاذي في المعهد ذات مرة ونحن نتمشى في الطريق المؤدي لمحاضرته أنه حين كان في رحلة إلى القاهرة قبل سنتين،قرأ شعاراً كُتب على باب دكان يبدو مغلقا منذ وقت طويل في أحد الأحياء التي تتراكم فيها أكوام الزبالة في جانب من المدينة، قريباً من شارع مزدحم بالناس: "الإسلام هو الحل!". فماذا يعني ذاك ؟ قال لي.

كان يعتقد هو بأن منظمة غير ربحية تعمل لصالح أطفال في مكان ما، هي من يتولى كتابة تلك الشعارات، أو ان حزباً سياسياً يتخذه كشعار لكسب الأصوات أو شي من هذا القبيل ..

وأوضحت له بأن ما رآه مكتوباً هو في الحقيقة شعار يرفعه بعض الناس هناك وفي أماكن أخرى متعددة، ويشير إلى ناحية دينية ليس لها علاقة بالأحزاب السياسية..

كان مهتما بمعرفة نوع المشكلات التي قد يحلها الالتزام بالإسلام. وبروح الباحث العلمي كان يسأل عن المشكلة بالتحديد.. لأنه يعتقد من زاويته اللغوية أن الشعار

مبتور.. وان له تكملة من قبيل: "الإسلام هو الحل لمشاكل الاقتصاد" .. أو لمشاكل البطالة .. أو للجريمة .. تلك هي نظرته ..

إجابتي كانت كما تعلمت في المدرسة (حل لكل شيء)!.

واستمر سؤاله.. كل شيء مثل ماذا؟ فأجبت:

- مشكلات الاقتصاد، والسياسة، والفن والمجتمع والنساء والمراهقين!.. وكل ما يخطر بالبال.

وأكمل هو ضاحكا:

- والمياه والكهرباء والحرب والسلم! . ضحكنا سويا لأنه في الأصل ذو شخصية كوميدية جاب اغلب مناطق العالم العربي ونصف الدنيا، يطرح الأسئلة على الناس ويتركهم في حيرة ولا ينتظر الإجابات.. ربما لأنه يعرفها او انه لا يبالي.. وفهمت أنه يقارن الأوضاع في بلاده بالأوضاع في عالمنا..

هو يعتقد بأن المشكلة في الشعار لفظية، تحتاج لتحديد وأنا اعتقد بأن المشكلة فيمن يحملون الشعار .. سألته : هل عندكم شعارات؟ فقال بسرعة : طبعا!

الحرية والعدالة والمساواة وغيرها ..

سألني أستاذ الجامعة في المعهد ذات مرة أثناء أحد حواراتنا:

- سيد حامد ما رأيك في المرأة الأوربية؟!

فقلت على طريقتهم :

- في الواقع ، يجب أن أعاشر واحدة حتى أدلي بحكمي بشكل منصف!.

توقعت أنه سيثور غضبا - كما نفعل نحن في حالات مماثلة- لكنه ابتسم وقال مشيرا لسرب من فتيات المعهد يعبرن في الاتجاه الآخر وهن ضامّات كراساتهن على الصدر:

- هذا عين العدل!.

وقفنا يومها نتحدث أمام باب فصله، هو بتواضعه،وأنا بسعادتي لأني اعتقدت أني اعرف كل شيء. ثم طلب مني أن ادخل عندهم في محاضرتهم عن تاريخ حضارات الشرق الأقصى.. جلست فقال موجها حديثه لي وهو يمسح لوح الطباشير: سأخبر السيد براد أنك هنا، وكان أستاذي في محاضرتي التالية كريما يدعي براد، متسامحاً في الحضور او عدم الحضور.

جلست إلى جانب طالب من الأورغواي عرفني بنفسه .. ثم عرفني الأستاذ ببقية الطلاب وتحدث عن سبب وجودي ومن أي بلد جئت. ثم سأل سؤالا طلب إجابته من الجميع:

- كيف توثر المعتقدات الدينية في بلدك على التنمية والحياة الاجتماعية.

تحدث الطلاب وتحدثت .. وقال وجهة نظره في النهاية وقدم لها بمقدمة معهودة. انه لا يقصد الإساءة، لكنه لا يظن بان طبيعة علاقة الإنسان بخالقه يمكن ان تقود مباشرة إلى التنمية او الإصلاح الاقتصادي .. الدين يبقى دينا والسياسة والمال شيء آخر .. ثم اخبرني انه بإمكاني الانضمام لمحاضرة السيد براد ان أردت، واني مرحب بي في أي وقت هنا ..

انصرفت وأنا أفكر وأفكر.. ومع أني قرأت لماركس ولينين ومكيافيلي وجارودي وأبو نواس وأبو العلاء .. وتعلمت بعضا من دروس الحياة لكنني ادخل لأول مرة في حوار مع آخر قد يكون محقا أكثر مني، وقد نلتقي سوياً في نقاط ونختلف في نقاط ..

حين وصلنا إلى منطقة الآثار القديمة بعد العصر بقليل تفرق الجميع .. أخرج السيد روبنسون آلات الرسم والتصوير وبدأ بتصوير جدران المعابد والأحجار المحيطة بالجدران العالية، وصحا المرشد السياحي من رقدته الطويلة في آخر الحافلة وقام بمرافقة السيدة نادين والفتى يوهان وصديقته ليطلعهما على المدافن

عن قرب، فيما بقيت وحدي أتجول في التلال القريبة، ثم جلست على حجر قرب بئر مرتفعة عادة ما أجلس عليها أثناء تجول أعضاء المجموعات التي أرافقها ..

كان الجو مترعا بالشوق وبرائحة البحر والمراكب البعيدة والسفن التي وصلت لموانئها والبواخر التي لن تصل أبدا، والجزر التي غاصت في الماء الى الابد، وحكايات سندباد غادر مدينته ورجع بعد ثلاثين عاما، محملا بالتوابل والذهب وأحجار الفيروز.

كانت السماء تنظر للبحر وكأنها تقول ان اللحظة الحاضرة هي كل شيء .. والبحر يقول للأفق: عش يومك!.. والأفق يقول للريح: لا تنظري للأمس مهما حصل..

لم أكن متحمساً لرؤية آثار البشر الذين غادرونا من زمن طويل. كنت فقط أفكر فيما قالته المرأة الغجرية في الصحراء: "اذا سقطت غنوا لها !"..

نظرت إلى تمثال بعيد يرمز إلى آلهة الحكمة عند الأنباط وتساءلت إن كانت آلهتهم تعرف أن الغناء يشفي؟ .. هل يعلم الإنسان الغيب ؟، هل من طريقة يمكنه أن يجزم بها بشأن قصر العمر وطوله..

في صحرائي هذه تمتزج شهور السنة كلها،بشتائها وصيفها، لتكون صيفاً يغطي على ما عداه، وفي صغري وبدايات قراءاتي للشعر لم أفهم سببا يجعل شاعرا يمتدح جدارا، او كهفا او وادياً يخلو من الخضرة، ولم يكن التقاء حبيبين أمام بقعة في بحر من الرمال، سببا يكفي لديّ، لتكون مكانا خالدا،لأني اعتقدت أن جمال المكان يكون بنفسه وليس بالأحداث. تعمقت بعدها قراءاتي فقرأت شعر الأندلس، ونسيت بعد ذلك الصحراء وشعرها ونثرها.

راقبت على البعد السيد روبنسون وهو يصور النقوش الثمودية، ويكتب تعليقات في دفتره، ويا للذكرى! ، فقبل ثلاث سنوات وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوما من الآن، وحين كنت جالساً في مركز شرطة ما لكفالة ابن عمي طاهر بعد القبض عليه يغازل النساء في السوق. حينها رفعت رأسي فلمحت على الجدار المواجه لي لوحة الرسام جاكسون كويلو، التي سماها "1948".كنت أعشق هذه اللوحة في مرحلة سابقة بسبب تلونها وتداخلها في متاهات. وبرعب وارتياب رفعت رأسي مرة أخرى لأتأكد فقط أني لم افقد عقلي بعد بسبب وجود اللوحة في مثل ذلك المكان، لكنها لم تكن في الواقع سوى خريطة للمدينة بالألوان، وقد وضع لون لكل

شارع، وأسعفني في وقتها مدير المركز بسؤالي عن اسمي وصلة قرابتي بالشخص المتهم ...

تساءلت في هذا الفضاء المهيب الذي يفيض جمالا وفناً وتسابيح ساحرة سجلها البشر أنفسهم قبل آلاف السنين .. هل اخترعت الفنون الإنسانية لبشر دون بشر؟. هل يحق لناس أن يستمتعوا بالفنون ولا يحق لآخرين أن يفعلوا ذلك؟. أذن متى سأبصر في مدينتي لوحات حقيقية لبول سيزار وبيكاسو ورامبرانت.. لمن إذن رسمت لوحات مثل: لاعبو الورق و"متى تتزوجين" أو مثل : "المستحمات" و"سلة التفاح" وغيرها من بصمات البشر التي وضعوها ثم رحلوا صامتين ..

انقطعت خيالاتي الهائمة حين تقدم مني فجأة المرشد السياحي ونادين وقد ارتسمت عليهم آثار القلق والخوف قائلين إنهم فقدوا الفتى يوهان وصديقته داخل أحد الممرات، وأنهم لم يعثروا عليهما حتى الآن.

كنت اخشى أن الفتى وصديقته قد بدآ طقسا من طقوس الحب تتخلله القبل والعناقات كالذي قدماه في باحة الفندق قبل أن ننطلق في رحلتنا، فانطلقت معهما للبحث ورافقنا السيد روبنسون تاركاً حقيبته وآلة التصوير في حافلتنا القريبة ..

كنا نسير وننادي عليهما آملين أن يكونا في مكان قريب يسمعوننا فيه. تركنا القصر الأثري الرئيسي واتجهنا لمباني محاذية له ، فدخلنا من فتحات القلعة وكان لنداءاتنا صدى يمكن سماعه من بعيد دونما ردّ ..

بدأ القلق يتسرب إلى الجميع بما فيهم السيد روبنسون، وفجأة خرجت صديقة الفتى لوحدها من أحد فتحات المبنى الصخري وسألتنا هل رأيتم يوهان؟!. قلنا إننا كنا نبحث عنكما ألم يكن معك؟، قالت إنه تركها فجأة واختفى بين التلال، وأشارت إلى ارض واقعة خلف الصخور الأثرية المنحوتة، فاتجهنا الى هناك مباشرة .. كانت جوليا تبدو قلقة وقالت:

- اخشى أن إحدى الجنيات قد اختطفته!،لأنه كان يقول كلاما غريباً، فتوقف السيد روبنسون وتوقفنا، وسألها:

- ماذا كان يقول ؟!

قالت انه يكرر كلمات من قبيل: "فاوست هنا"، وغيرها من الكلمات التي تتحدث عن فاوست ومأساته ..

تذكرت على الفور أن الفتى كان قد قدم لنا جزءا من تلك المسرحية في الليلة الماضية وتبادلت مع السيد روبنسون نظرات شاردة ..

سألته-باعتباره عالم آثار وأستاذ في هذا المجال-ان كان يعتقد بأن الفتى واقع تحت تأثير هلوسات من نوع ما؟

فقال بأنه بأن كثيرين قد أصيبوا بنوع من المرض بسبب خوفهم من اللعنة التي تتركها أماكن مثل هذه .

بدأ الليل يزحف وبدأت الشمس تتجه نحو المغيب والفتى لم يظهر بعد ..

قالت نادين مخاطبة زوجها:

- روبي!. أرجو ألا تخيفنا . سيكون الفتى بخير ..

فقلت مؤكدا:

- قد يكون ضل الطريق وهو بانتظارنا في مكان ما هنا بين الآثار..

واصلنا البحث بين التلال القريبة وفي المدافن، وأحضر روبنسون من الشاحنة بطاريات ضوئية، وأمرنا أن نكون قريبين من بعضنا البعض ..

كانت صديقة يوهان أكثرنا خوفاً ، وكنت أكثرهم إحساسا بالمسؤولية . ماذا لو أن الفتى فقد للأبد في هذا المكان المقفر؟!

بعد ساعة من التجول في المكان صائحين بأعلى أصواتنا على الفتى طلبت منا نادين الإنصات وأشارت إلى بقعة مظلمة داخل أحد الكهوف المرتفعة. تناهى إلينا صوت نشيج ينبعث من ذلك المكان فانطلقنا جميعا باتجاه الصوت وحين وصلنا رأينا يوهان جالسا في خشوع أمام أحد النقوش القديمة التي تمثل محاربا يحمل رمحاً منحوتة في الصخر. حين رآنا توقف عن البكاء وقال وعيناه ممتلئتان بالدموع:

- لماذا قتلوا فاوست ؟!

شعرنا بالسعادة لأنه بخير، وتولى السيد روبنسون إفهامه ببساطة . قال:

- حسناً .. "فاوست" مات على سريره ولم يقتله أحد يا بني .

قال الفتى وكأنه يعيد شيئا سمعه في حصة مدرسية وتلبس به:

- لكن، هل يستحق الموت لأنه باع نفسه للشيطان؟..

اقترحت على يوهان أن ينضم إلينا خارج الكهف المظلم لمناقشة الأمر ولكن السيد روبنسون أشار إليّ بأنه لا بأس من البقاء هنا لبعض الوقت ما دمنا جميعا بخير .. ثم وجه حديث للجميع :

- فاوست الحقيقي لم يكن سوى ساحر يكسب عيشه بألعاب الخفّة .. وما يكتبه الآخرون بعد عشرات السنين عن أناس مضوا الى مصيرهم قد لا يكون دقيقا تماما..

قالت السيدة نادين موجهة حديثها للفتى:

- ما يقوله روبنسون هو الحقيقة يا يوهان.

أمسكت جوليا بيد صديقها وهزتها قائلة:

- أنا احبك يا يوهان. انظر اليّ! . فاوست رجل آخر.. مات منذ زمن.

جلست الفتاة إلى جواره وكلمته بالألمانية بضع كلمات، ثم وقفت وهي ما تزال تمسك بيده وقالت لنا:

- سيكون بخير. أشكركم جميعاً.

تطلع إلينا الفتى جميعا وكأنه يصحوا من رقدة طويلة، ثم وقف وقال :

- حسنا! لنذهب من هنا ..

توجهنا جميعاً للحافلة وطلب السيد روبنسون من الجميع البقاء هناك لحين انتهاءه من تصوير بعض النقوش قبل أن يحل الظلام، فرافقته إلى تلة قريبة تقع قريبا منها حفرة في الأرض يبدو انها كانت بئرا فيما سبق .. قام بتصوير بعض الرسومات، وقام برسم البعض الأخر يدويا،ثم عدنا إلى للحافلة.

تأملت السيد روبنسون وهو يسير الى جانبي ، فرأيت رجلا مختلفا ذا تجربة إنسانية ثرية وشخصية عميقة مليئة بالأسرار ..

في طريق العودة الى الفندق في المدينة حدثني بإنجليزية متدفقة ومتأنية عن عمله كمتخصص في تقييم الآثار وترميمها بالإضافة لهوايته في جمع التحف الفنية واللوحات النادرة ثم إعادة بيعها لأصحاب القصور وللتجار في أنحاء من أوروبا .. كلمني عن الفترة التي قضاها في معابد الرومان في الشمال الليبي ولبنان، وعن زيارته لأهرامات مصر وأثارها، وقال انه وجد المتعة الحقيقية في تتبع آثار الأشوريين في الموصل وبابل ..

زار الكثير من الأماكن وقال انه رأي الإنسان القديم والحديث. إنسان ما قبل التاريخ بأدوات صيده وطرائقه في التفكير، وإنسان اليوم بتفكيره وحبه لجمع الثروات والقتال. مرة يكون الانسان فنانا ومرة يصبح متوحشا ..

قال لي إن احد أثرياء أمريكا وضع كل ثروته في لوحة فنية حتى ينجو من الضرائب، وان آخر من الأثرياء قدم كل أمواله هدية لأطفال العالم الجوعى..

دائما هناك نوعان من كل شيء وأولهم البشر! .. كل نوع له أهدافه وقناعاته .. هكذا هي طريقة روبنسون في الحديث، لكنني وجدتها صحيحة فكنت أوافق على كلامه وأطلب المزيد من رجل عاصر حضارات لم اسمع بها ورأى أنواعا من الناس لم أرهم، وربما رأى أشباحا في جولاته داخل كهوف المكسيك والبيرو ومغاراتها ،باحثا وراء حضارات الإنكا والمايا،والتولتيك ..

سألته عن الكلمات التي سمعتها منه أثناء نومه فلم ينكر ذلك .. قال وهو يتناول الشاي الذي قدمته لنا السيدة نادين في الحافلة:

- دعك من هذا! . انها قصة طويلة .. فقد كنت وقتها مجندا في البحرية البريطانية أثناء حرب الفوكلاند .. وكان يرأسنا ضابط انجليزي قاسي القلب، يعامل الأسرى بلا رحمة.. وفي إحدى الغارات التي استولينا فيها على إحدى الجزر، جمع القائد عددا من الأسرى الأرجنتينيين الملونين وكان على وشك الفتك بهم، فرفض جميعنا

القيام بذلك، مؤكدين له أن هذا مخالف للمعاهدات الدولية .. وحين رأى إصرارانا على عدم تنفيذ أوامره، قال للأسرى المرتعبين وهو غاضب:

- ارجعوا الى بيوتكم ايها السكارى! .. في المرة المقبلة سأكون هنا بالانتظار، ولن تنجوا أبدا.

لم تكن هناك مرات اخرى، لأن الحرب انتهت بعد ثلاثة ايام وعدنا للوطن منتصرين.

كنت وزملائي نعتقد بأننا انقذنا أولئك الأسرى، وصارت تلازمني بعدها أحلام سعيدة منذ ذلك الحين. احلم فيها بأنهم يسيرون أمامي مثل القطيع وهم جوعى ومكبلين، واني اخاطبهم من فوق تلة أو مكان عال.

عادت الحافلة تقطع الطريق ذاته الذي جاءت منه ولاحظت كأن روحاً جديدة شعت في أفراد الفريق الذي عانى من الإرهاق على مدى يومين متواصلين.

تذكرت حديث خضرا في الصحراء: "حين يغني لنا من نحب نشفى من تلقاء انفسنا". فأحببت ان أقدم أولى هداياي للسيدة نادين. فقلت مفاجئاً روبنسون وهو جالس بجـواري:

- سيد روبنسون !، نريد أن نسمع غناء إيرلندياً؟! فقال بسرعة:

- حسنا موافق. اذ لا يوجد رجل إيرلندي يحب التجول بعيدا.! ..

علمت انه سيغني أغنية وطنية قديمة احفظ بعضها، سبق وأن سمعتها في أحد برامج الإذاعة البريطانية.

تناولت ميكرفون الحافلة، وقلت كأني اوجه تنبيها في حفلة موسيقية، لاستقراطيين من علية القوم ..

- "سيداتي وسادتي .. هذه الفقرة سيقدمها ملك الموسيقى الريفية، الإيرلندي الشاب،روبنسون هربرت:

صفق الجميع في الخلف فقال السيد روبنسون وهو يمسك الميكرفون :

- هل الجميع هنا مستعدون للمتعة؟!

فقالوا بنفس واحد:

- أجل ..!

غنى روبنسون شعرا إيرلنديا وكأنه يغني لامرأة حياته وحدها، فعلمت انه يبدأ أولى خطوات الشفاء الحقيقية لهذه المرأة اليائسة:

- "أرني هذا الذي لا يحب وطنه!"...

- "اريد ان أرى الرجل الذي لا يحب الأرض التي ولد فيها .. ولا يبدو فخورا بها" ..

كان روبنسون يغني وكأنه يقود جوقة عسكرية، وحين يرفع يده نردد سويا بعض المقاطع:

-"لينقلب الأصدقاء أعداءً، وليقل الحمقى ما يشاؤون!"..

-"فما زلت أحب إيرلندة القديمة" ..

-"وقلبي يعيش في بلدي"

-"لن تجد بلدا أعظم من بلدنا، مهما بحثت في العالم اجمع!"

وكررنا معه :

-"لا يحب الرجل الايرلندي أن يتجول بعيدا!"..

كانت عدوى السعادة والغناء قد انتقلت الى الجميع فتمنيت ان ابن عمي طاهر الوغد معنا الان ليغني لنا بصوته الجميل، لكنه غائب وقد يكون في مهمة عشق جديدة لا اعلم عنها ..

بعد ان صفقنا جميعا للسيد روبنسون .. قلت مداعبا الفتى يوهان ان كان يريد تقديم أي مسرحية أو شيء من هذا القبيل .. فقال انه سيقدم بدلاً من ذلك اغنية المانية بمشاركة صديقته جوليا ..

قدم الاثنان مقطعا أوبرالياً من أرض الرايخ الألماني نال أعجابنا كلنا .

وحين سألت السيدة روبنسون إن كانت تجيد الغناء، قالت: ليس كثيرا، لكنها تتمنى لو كانت تستطيع أداء فقرة من أغنية لأم كلثوم تحبها كثيرا:" ياحبيبي طاب الهوى...". حاولت أن أتذكر الاغنية فلم أستطع وقتها، فقال السيد روبنسون حسناً وماذا يا نادين عن الرقص؟!، فقالت انه لا باس به حين تتاح فرصة في وقت مناسب ..

فلمعت عينا السيد فجأة وصاح وهو يقف :

-نادين ما رأيك؟ لنفتتح صالة للرقص ..

صمتت السيدة قليلا ثم قالت :

-لتكن مشيئة الله .. كنت أفكر في ذلك ..

قلت في نفسي: هذا الرجل أعجوبة يجب ان تستفيد منه أجيال، فها هو الآن يناول مريضته دواءها عن طيب خاطر منها.

التفت اليّ السيد روبنسون وسألني عن رأيي في ذلك.. فقلت مازحا:

-اني لا أفضل عادة الدخول في الشركات العائلية، لكنني سأرمي بكل استثماراتي في هذه القاعة! ..

ضحكت نادين بشكل عفوي وهي تقول:

-حسنا.. انها فكرة رائعة، قد نعمل عليها حين نعود للمنزل ..

ساد صمت طويل وخلد الفريق للنوم على كراسي الحافلة ..

كنت أظن حتى وقت قريب اني اكتفيت من دروس الحياة، فإذ بي لست الا تلميذا غرّاً صغيرا لم يتعلم الابجديات بعد .. ما أعتقد انه الحقيقة المطلقة بدا لي مجرد رأي من الآراء، وما اعتقدته إيماناً يجب ان اقاتل من أجله أصبح مجرد وجهة نظر لأشخاص في زمن ما، قد تتغير بتغير الأزمان والأماكن والظروف ..

أدركت ان ما نظنه صحيحا اليوم قد لا يكون كذلك بعد مائة سنة!، وما نظنه خطأ سيتحول صوابا.. وأغلب الظن ان التغيرات ستأخذ وقتا لتستقر في الأفهام، ثم تأخذ وقتا للتغيّر، ليحل محلها غيرها من أفكار يقوم ببذرها اشخاص آخرين وهكذا.. وعلى سبيل المثال، فحين قرات كتاباً عن الشيوعية قبل سنين عدة، تحمست في الاتجاه المضاد لها، لكنها سقطت واختفت وتلاشت من تلقاء نفسها .. بقية الافكار ليست بعيدة عنها ..

لاحت لنا في الظلام أضواء على جانب الطريق اعتقدناها في البداية محطة بنزين. حين اقتربنا منها وجدناها حفل زواج في الهواء الطلق .. كانت اللمبات مغروسة في سلك كهرباء يمتد على أربعة جوانب. وغير بعيد نصبت خيام مفروشة بسجادات حمراء لاستقبال الضيوف، وتجمع عدد من الناس واقفين في جانب من تلك الخيام .. في ركن من المكان ثمة قطيع من الماشية يقف امامها راع .. عندما حاذينا التجمع تطلع روبنسون من النافذة وقال لي إنه يريد التقاط بعض الصور ..

بقي أعضاء الوفد في الحافلة يشاهدون وتقدمت مع روبنسون للاستئذان كي نلتقط الصور .. رحب بنا والد العريس وقال: تفضلوا سيبدأ الاحتفال الان ..

وبالفعل فقد تجمع الكثير من الرجال في دائرة متماسكة وسط الأضواء، واقفين فوق الأرضية المفروشة بالسجاد الأحمر.

بعد ان تعالت أصوات الطبول بوقت قصير تقدم راقصان الى ساحة الرقص، بدآ بالدوران حول بعضهما، ثم ارتفعا سويا وحطا على الأرض متقابلين مثل نسرين جارحين، ثم وثبا دفعة واحده وتقابلا وجها لوجه، ولبثا برهة ينظران لبعضهما في تحدّ صامت كأنهما لا يعرفان بعضهما. ابتعد الراقصان ثم اقتربا من بعضهما في اهتزازات متشابهة، وتلامست صدورهما ،ثم ابتعدا مرة أخرى، وفي قفزة واحدة اتخذ كل راقص جهة من الميدان. دار الأول على الميدان بقفزات حثيثة وارتفع في الهواء أكثر من مرة، قبل أن يعود ملامسا الارض وكانه وزنه ريشة.

تتابع القفز والدوران من كلا الراقصين . كان الواحد منهما بعد ارتفاعه يجلس مستعيناً بيده ومرتكزا على أصابع قدمه اليمنى بينما ركبته اليمنى تلامس الارض، مثبتاً قدمه اليسرى في شكل مستقيم.

كانت الثياب البيضاء التي يرتدونها تنحسر الى منتصف افخاذهم في اثناء الدوران وعند ارتفاعهم وانخفاضهم ،فيما اصوات الطبول تعلو حين يرتفع ثم تنخفض حين يحط على الارض فبدت حركاتهما متناغمة مع أصوات الزير والازلاف التي تم إحماؤها جيدا قبل الاحتفال على نار قريبة ما تزال مشتعلة لا تطفأ، الا بعد انقضاء الحفل وذهاب الجميع..

بعد عدة دورات للراقصين حول الميدان خففا من وتيرة الرقص وتفرقا في المساحة التي في الوسط، وانضم كل واحد منهما الى جهة من جهات الحلقة التي ما تزال تدور متشابكة الايدي، والتحما من جديد في الحلقة الكبيرة من الرجال.

تقدم لوسط الميدان شاعر طلب بحركة من يده من أصوات الطبول ان تقف فتوقف الجميع عن الحركة ثم رفع صوته وبدأ بالغناء ..

دارت الصفوف دورتين او اكثر ثم اتسعت لاستيعاب مشاركين جدد، وفي كل دورة يرددون نصف بيت شعر يلقيه الشاعر، ثم يغيره في الدورة التالية رافعا صوته ليسمعه الجميع..

وبحانب الطبول اشعلت النار وانهمك ضاربو الطبول والدفوف في حالة من الطرب الداخلي الذي قد يشعرك انهم يغنون لمجرد الغناء فقط لا علاقة له بزواج او غيره..

وبين الحين والاخر يقفز داخل الحلبة راقص او واقصان يبدان الرقص بركض متعاكس ثم بالقفز عاليا مع حركة الزيز والطبل والدف المعلق بحبال في رقبة واكتاف المسؤول عن الدف.

سألني السيد روبنسون في ضجج الرقص والطبول:

- هل تستطيع أن ترقص مثلهم؟

فقلت اني لا أجيد الحركات كلها، لكن بعض اخوتي وأبناء عمي ماهرين في ذلك.

أخبرته في استراحة للرجال هناك، أن أحد كبار السن في قريتنا يظل يرقص في مناسبات كهذه حتى يسقط من الإعياء، وحين يطلب منه الحاضرون أن يكتفي رقصا، كان يقول لهم بأن "حبله السري" مدفون هنا ويشير الى الميدان!.

أبدى روبنسون استغرابه وكان على وشك ان يسالني بهذا الشأن لولا ان قطع الحديث استئناف الرقص من جديد ..

حين وصلنا الى الفندق أخرجت نادين من حقيبة يدها الجلدية ألبوماً صغيرا للصور واخرجت منها صورة فوتغرافية بدت قديمة، تظهر مزرعة خضراء بداخلها عدد من الخيول، مسيجة بسياج خشبي أبيض ذي اعمدة مثبتة بالأرض . فقلت متشجعاً :

- هل لديك صورة للوعول؟

نظرت اليّ بعينين عاشتا ألما في زمن ما .. فقلت متلطفاً:

-لا بأس، فقد أخبرني السيد بكل شيء!.

عادت الى ألبوم الصور وأخرجت صورة واضحة لوعول ترعى خارج السياج وأشارت الى إحدى الوعول الواقفة فوق تلة مرتفعة ضمن الزرعة المسيجة وقالت:

- هذه هي!.

كان لونها يشبه لون صخرة مضيئة بضوء القمر، لها قرنان صغيران، وعينان مليئتان بالسواد.

قلت على الفور وانا أتأملها:

- حسنا لقد فهمت ،كانت جميلة للغاية..

قدمت لي نادين صورا اخرى لأحصنة ووعول ترعى بين الجبال ، وصورا لها مع السيد روبنسون وهما يمتطيان الجياد وهما يلبسان قبعات مستديرة بألوان متعددة، وقدمت صورا للمنزل الذي كان في المزرعة. في اثناء تأملي لتلك الصور اختارت الصورتين التي أريتني اياها أولا، وقبل ان تقدمها لي قالت:

- سيد حامد.. هل تعتقد بان راضية سعيدة الان! ..

قلت بأني لا اعتقد ان أحدا يعيش سعادة مثلها الان .

فتحولت تعابيرها الى الرضا التام، وقدمت لي الصورتين كهدية .

- "ارجو ان تقبلها مني كتذكار لهذه الرحلة" .. قالت.

شكرتها وقلت انها اجمل رحلة قمت بها في حياتي ..

بقيت مع الرفاق في بهو الفندق، وتناولت معهم العشاء .. ثم ودعتهم آملا ان التقيهم في زيارات اخرى.

بعد أشهر .. أخبرني موظف البريد في شركة النقل بوجود رسالة مسجلة باسمي ..

كانت من نادين تعبر فيها عن شكرها وتخبرني بانها منذ مدة اصبحت تقرأ كتباً جديدة من ضمنها "الام فيرتر"، وكتبا للروائي الياباني العظيم الذي انتحر كاواباتا.. داهمني شعور بالحزن فقد تكون السيدة روبنسون على وشك الانتحار ..

قمت سريعاً بالرد على رسالتها برسالة تشجيعية، أرفقت معها صورا لنبات الريحان والبرك التقطتها بنفسي، ورجوتها أن ترسل لي نسخاً من صور الاحتفال الذي حضرناه في طريق العودة ..

لم أتلق رسائل خلال عام كامل .. وفي نهاية السنة الميلادية تلقيت بطاقة تهنئة مع رسالة من نادين تقول في آخرها ..

- "حسنا لم انتحر بعد!، وبدلاً من ذلك فقد شفيت من الماضي بكل ألامه. لقد ودعت الحزن الى الأبد.. الفضل يعود لك ولراضية بالطبع.. عدت طفلة من جديد. أنا الان أدير قاعة لتعليم الرقص في دبلن ".

وأرفقت مع رسالتها صور الحفل الآتي طلبتها في رسالتي، بالإضافة الى صور لقاعة ذات سقف مضيء بالألوان، مفروشة بأرضيات الخشب وجدرانها مزينة برسومات ولوحات فنية.. من بينها لاحظت صورة لي مع الفريق في الصحراء، وخلفنا مجموعة من الخيام السوداء.

انتهت.